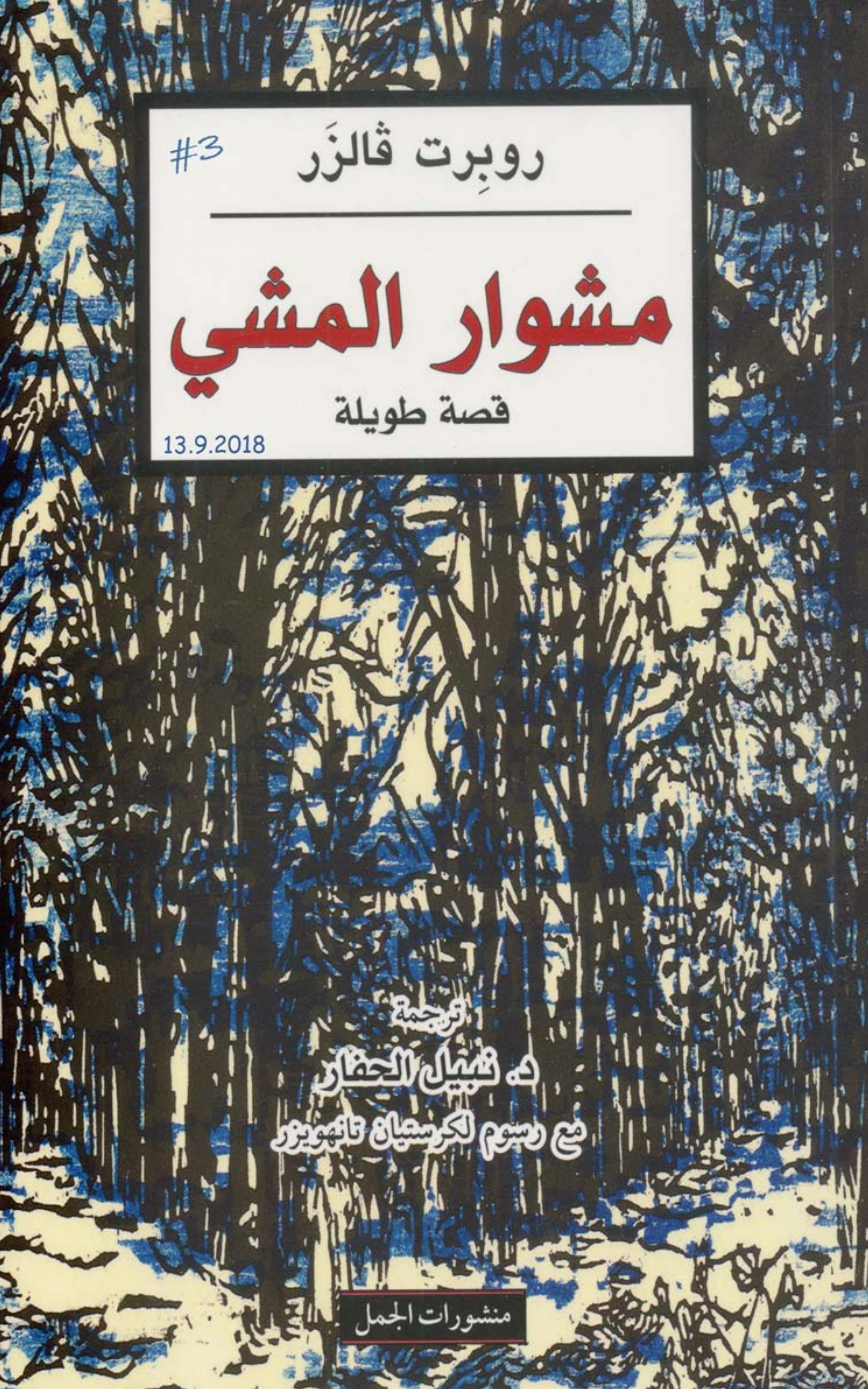
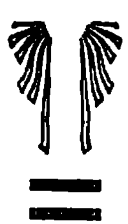


#3
روبِرت ڤالزَر
مشوار المشي
قصة طويلة
13.9.2018
ترجمة
د. نبيل الحفار
مع رسوم لكرستيان تانهويزر
منشورات الجمل

روبِرت ڤالزَر

مشوار المشي

قصة طويلة



ترجمة
د. نبيل الحفار
مع رسوم لكرستيان تانهويزر

منشورات الجمل

روبِرت ڤالزَر: مشوار المشي

روبِرت ڤالزَر: مشوار المشي، قصة طويلة، ترجمة: د. نبيل الحفار
مع رسوم لكرستيان تانهويزر

Robert Walser: Der Spaziergang

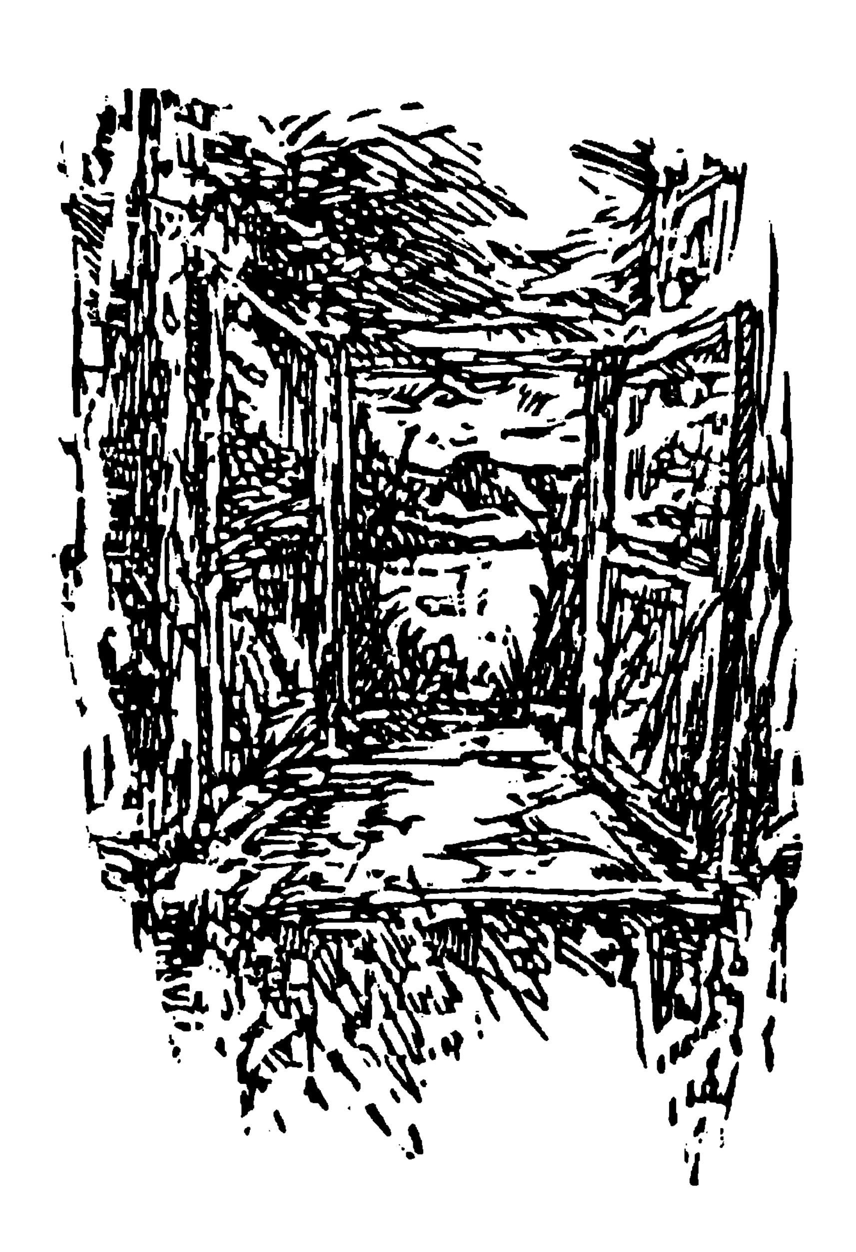
الطبعة الأولى ٢٠١٨

تلفون وفاكس: ٣٥٢٣٠٤ ـ ٠١ ـ ٠٠٩٦١
ص.ب: ٥٤٣٨ ـ ١١٣ بيروت ـ لبنان

Postfach 1127 - 71687 Freiberg a. N. Germany
www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

أحيطكم علماً بأنني ذات يوم جميل، قبل الظهر، لم أعد أدري في أي وقت بالدقة، حضرتني رغبة في أن أتمشى، فلبست قبعتي، وغادرت غرفة الكتابة أو غرفة الأرواح، ونزلت على الدرج لأخرج بسرعة إلى الطريق. بإمكاني أن أضيف أني التقيت على الدرج بامرأة تبدو وكأنها إسپانية أو پيروانية أو كريولية، تظهر عليها مسحة جلال شاحب ذابل. ولكن يجب أن أمنع نفسي بشدة عن التوقف ولو لحظات عند هذه البرازيلية أو مهما كانت ترغب في أن تكون، إذ لا يجوز لي هدر المكان ولا الزمان. وبقدرِ ما زلتُ قادراً على تذكره اليوم وأنا أدوّن هذا كله، كنت عند خروجي إلى الطريق المفتوح المنير الأنيس، في مزاج رومنسي مغامر، أسعدني على نحو عميق. عالم الصباح الممتد أمام ناظري بدا لي جميلاً، وكأني أراه لأول مرة. كل ما لمحته عيناي ولّدَ في نفسي انطباعاً مريحاً بالود والطيبة والشباب. وسرعان ما نسيت أني لتويٍّ كنت في حجرتي منكباً

بكآبة على صفحة بيضاء مستغرقاً في التفكير. وكأن كل الحزن الآن والألم والأفكار المزعجة قد اختفوا، على الرغم من جدّيةٍ معينة ما زلت أحس بها كإيقاع يواكبني بحيوية أمامي وخلفي. كنت متلهفاً إلى كل ما قد يصادفني أثناء مشوار المشي أو يعترضني. كانت خطواتي رزينة وهادئة، وعلى حد علمي، كنت بمشيتي هذه في طريقي، أبدي الكثير من وقار جوهري. أنا أحب أن أخفي أحاسيسي عن أعين الناس من حولي، ولكن دون أن أبذل الجهد الحذر لذلك، الأمر الذي أعتبره خطأ كبيراً وغباء مستفحلاً. لم أكن قد مشيت عشرين أو ثلاثين خطوة عبر ساحة واسعة حافلة بالناس، حتى قابلت بصورة جانبية البروفِسور مايلي وهو طاقة علمية من الدرجة الممتازة. خطا البرفسور مايلي مثل قامة راسخة بجدية احتفالية وسمو؛ ممسكاً بيده عصا مشيٍ علمية لا تنحني، أوحت إلي بالخوف والهيبة والاحترام. كان أنف البروفسور أقنى مثل أنف نسر أوعقاب، مسيطر وحازم، وفمه كان كتوماً حقوقياً ومقفلاً تنفيذياً. كانت طريقة مشي العالِم الشهير تشبه قانوناً صارماً، وفي عينيه القاسيتين الكامنتين وراء حاجبين كثين كان يبرق تاريخ العالم وانعكاس أحداث بطولية طواها الزمن الغابر. قبعته تشبه حاكماً من الصعب إزاحته عن كرسيه، علماً بأن الحكام السريين هم الأشد تعالياً وقسوة. لكن البروفسور مايلي إذا أخذنا الأمر



بمجمله، كان يتصرف بلطف كبير، وكأنه لا يحتاج بأي حال من الأحوال لإظهار كمْ يتمثل في شخصه من سلطة ووزن، فبدت هيئته أنيسة، رغم كل الصرامة والقسوة، وذلك لإقناعي نفسي بأن أولئك الذين لا يبتسمون بطريقة حلوة وجميلة، هم أشخاص شرفاء يُعتمدُ عليهم. فهناك كما هو معروف أنذال يلعبون أدوار أخيارٍ طيبين، ويمتلكون الموهبة المريعة لأن يتبسموا بكل لطف وتهذيب وهم يقومون بأشنع الأفعال.

أشم شيئاً في الهواء من بائع كتب ومكتبة؛ وسريعاً بعد ذلك، بناء على إحساسي وملاحظتي، أشم شيئاً من بائع معجنات يعلن عن بضاعته متباهياً بحروف ذهبية. ولكن لابد لي من تثبيت رؤيتي قبل ذلك لقسيس أو كاهن، وكذلك لخبيرِ صحة يقود دراجة هوائية بوجه ودود يوحي بالأهمية ويمر لصق أحد المشاة، أي لصقي أنا، متابعاً طريقه، وأيضاً لطبيبِ فرقةٍ أو كتيبة عسكرية. إذ لا يجوز للماشي المتواضع أن يمر دون أن يلحظه أحد أو أن يبقى دون ذكر؛ لأنه يلتمس مني تنويهاً به، ولو من باب المجاملة. هذا الآن حديث نعمة كان سابقاً تاجر ثياب مستعملة. ثمة فتيان وفتيات يتراكضون بانطلاق وحرية في ضياء الشمس. 'ليبقوا منطلقين بحرية' فكرتُ 'سيأتي يوم يلجمهم فيه العمرالمتقدم ويرعبهم. لكن ذلك سيكون مبكراً جداً للأسف.' هناك كلب يلعق مسروراً من مياه بركة النافورة،

وطيور السنونو تزقزق في الهواء الأزرق، إضافة إلى سيدة أو اثنتين أنيقتين في تنورتين قصيرتين بصورة مذهلة وجزمتين طويلتين ملونتين على نحو مدهش، آمل أن تسترعيا الانتباه مثل أي شيء آخر. ثمة قبعتان قشيّتان أو صيفيتان تثيران الاهتمام. مسألة قبعات الرجال القشّية هي كالتالي: إذ إني أرى فجأة قبعتين في الهواء الناعم المضيء، وتحت القبعتين يقف سيدان فاضلان، يبدو أنهما يتبادلان تحية الصباح بتحريك القبعتين وهزِّهما في الهواء. وفي هذا المشهد تكون القبعتان بكل وضوح أكثر أهمية من لابسيهما ومالكيهما. نأمل من الكاتب بكل تواضع أن يحذر من كل ما هو فائض حقاً على صعيد السخرية والتهكم. نرجوه أن يبقى جاداً، على أمل أن يكون قد فهم ذلك أخيراً وعلى نحو نهائي.

لمّا وقعت عيناي بارتياح على مكتبة ضخمة فخمة ودسمة، وكنت أشعر بحافز ورغبة لزيارتها زيارة قصيرة عابرة، فإني لم أتردد في دخول المتجر بكل التهذيب اللائق، مقلّباً في ذهني فكرة أني سأبدو في نظرهم على الأغلب أقرب إلى مفتشٍ ومراقبِ كتبٍ أو إلى جامع استعلامات وخبيرٍ عارف، مني إلى أحد الزبائن الأغنياء المرغوب فيهم في متجر كتب. استفسرت، بصوت ودود وبالغ الحذر، منتقياً التعابير الأكثر وضوحاً، عن أحدث وأفضل مالديهم في ميدان الآداب الجميلة. سألت تاجر



الكتب بخجل: «أتسمح بتعريفي على أثمن كتاب لديكم وأكثرها جدية، بالتالي طبعاً أكثرها قراءة وأسرعها اعترافاً بقيمته واقتناءً له؟ سأكون مديناً لكم بشكر استثنائي فوق العادة، إنْ تفضلتم وتكرمتم بعرض هذا الكتاب عليّ، الأمر الذي لن يجيده أحد سواكم بالتأكيد بالدقة المعهودة عنكم، أنتم أصحاب الحظوة العليا لدى جمهور القراء، كما لدى النقاد مرهوبي الجانب والمطلوبة لذلك محاباتهم لاشك. لن تصدقوا أبداً مدى اهتمامي بالتعرف فوراً على ذاك الكتاب، من بين جميع الكتب والأعمال الأدبية المصفوفة والمعروضة هنا، المفضَّل المثير للتساؤل، والذي ستحفزني محض رؤيته على الأغلب، في تقديري، إلى شارٍ فوري ممتلئ بالفرح والحماسة. إن حاجتي إلى معرفة الكاتب المفضل في عالم الثقافة وتحفته المستقبَلة بتصفيق عاصف والتي، كما سبق أن ذكرت، سأشتريها على الغالب فوراً، تجتاحني وتنساب عبر أطرافي كافة. فهل تسمحون لي أن أرجوكم بكل أدب، عرض هذا الكتاب الأكثر نجاحاً على ناظريَّ لإشباع الصبابة التي ملكت علي كياني كله، فتكف عن إزعاجي؟» ـ «بكل سرور»، قال تاجر الكتب. اختفى مثل سهم من دائرة النظر، ولكن ليعود ثانية بعد لحظة إلى المشتري المشحون رغبة واهتماماً، وفي يده الكتاب الأكثر قراءة وشراءً وذو القيمة الباقية. كان يحمل النتاج الفكري الثمين بعناية

واحتفالية وكأنه يحمل رفات قديس. كان وجهه مبتهجاً، وسحنته تشع بأقصى درجات المهابة، وعلى شفتيه ابتسامة لاتُرى إلا على شفاه المتدينين والعامرة قلوبهم بالإيمان وهو يضع أمامي ما جلبه بأسلوب المنتصر. نظرت إلى الكتاب وسألته:

«أبوسعك أن تقسم على أن هذا هو الكتاب الأكثر انتشاراً هذه السنة؟»

«بلا شك.»

«أبوسعك الزعم بأن هذا الكتاب لابد للمرء من قراءته؟»

«حتماً.»

«هل هذا الكتاب جيد حقاً؟»

«هذا سؤال فائض كلياً ولايجوز أن يُسأل!»

«أشكرك جزيل الشكر»، قلت بأعصاب باردة، تركت الكتاب، الذي لاقى الانتشار الأوسع لأنه كان لابد من قراءته، في مكانه حيث وضعه، وغادرتُ بكل هدوء دونما أي كلمة إضافية. «إنسان عديم الثقافة وجاهل!» صاح البائع ورائي طبعاً بانزعاج عميق ومحق. تركته يقول ما يريد وتابعت طريقي متمهلاً، وفي الواقع، حسبما سأبيّن وأفسر فوراً، إلى أقرب مؤسسة مصرفية كبيرة.

فقد رأيت أنه لابد من أن أراجع أحدهم هناك، لأحصل

على تفسير موثوق بشأن أوراق مالية معينة. «يمكنني على طريقي أن أخطف قدمي بسرعة إلى مؤسسة مالية»، فكرتُ أو قلت لنفسي، «للتفاوض حول أمور مالية ولأطرح أسئلة لا تقال إلا همساً، هذا أمر جميل وسيعود علي بمنفعة مالية كبيرة.»

«هذا أمر جيد، ويالها من مصادفة رائعة أن تأتي إلينا شخصياً»، قال لي الموظف المسؤول الجالس وراء الكوة وبلهجة غاية في الود، وأضاف وكأنه يمزح، إنما بشكل مريح مع ابتسامة مشرقة:

«الأمر كما قلتُ جيد، كونك أتيت إلينا بنفسك. فقد كنا على وشك أن نتواصل معك بريدياً، لنحيطك علماً بالخبر الذي لاشك في أنه سيفرحك، والذي بوسعنا الآن أن ننقله إليك شفاهة، وهو أننا بتكليف من جمعيةٍ أو حلقة من النساء الطيبات القلب والمحبات للإنسانية، اللواتي يحملن تجاهك مشاعر الود على ما يبدو، قد خصصنا لك مبلغ ألف فرنك سويسري، لا كقرض يثقل عليك، وإنما على نحو سيلاقي ترحيبك بلا شك، أي كحساب رصيد سنقوم هنا بالمصادقة عليه لك، والذي إذا شئت يمكنك حفظه فوراً في رأسك أو في المكان الذي يلائمك. نحن من جهتنا نفترض سرورك لهذه المبادرة؛ إذ إنك بكل صراحة، توّلِد لدينا الانطباع، الذي يجيز لنا القول إنك دون مواربة وبكل وضوح بحاجة ماسة إلى رعاية ذات طبيعة

حساسة. المبلغ موجود تحت تصرفك منذ اليوم. وفي هذه اللحظة يرى المرء بهجة عامرة تغمر ملامح وجهك. عيناك تشعان؛ وفمك في هذه اللحظة يضحك، فمك الذي مر دهر دون أن يضحك، لأن هموماً يومية ضاغطة من النوع البشع كانت تحول بينك وبينه، ولأنك كنت ربما منذ وقت طويل في حالة مزاج عكر، لوجود أفكار متنوعة، خبيثة وحزينة، تعكر صفو جبينك.إفرك كفيك ببعضهما سروراً الآن، وافرح لكون بعض السيدات الفاضلات المحسنات الطيبات قد حفّزتْهن الفكرة السامية بأن إزالة الألم فعل جميل وتخفيفَ الفقر خيرٌ، ففكرن بدعم أديب فقير خائب (فأنت فقير وخائب، أليس كذلك؟). ونحن نهنئك لحقيقة وجود بعض الناس الذين تنازلوا وتذكروا وضعك، ولواقع أن قلة منهم يبالون لحال الأديب المُزدرى على عدة مستويات، فلا يتجاهلونه.»

«إن المبلغ الذي تبرعتْ لي به أيادي حوريات أو نساء حنونات ورحيمات، ووصلني على نحو غير متوقع»، قلتُ، «أرغب في إبقائه عندكم، حيث سيكون في الوقت الراهن في حرز أمين، مادمتم تمتلكون الخزائن الآمنة من الحريق واللصوص لحفظ الكنوز من أي إتلاف ومن أي تدمير. وأنتم فوق ذلك كله تدفعون فوائد. أيجوز لي طلب إيصال استلام منكم؟ أتصور أني أملك، في أي وقت شئت ورغبت وحسب



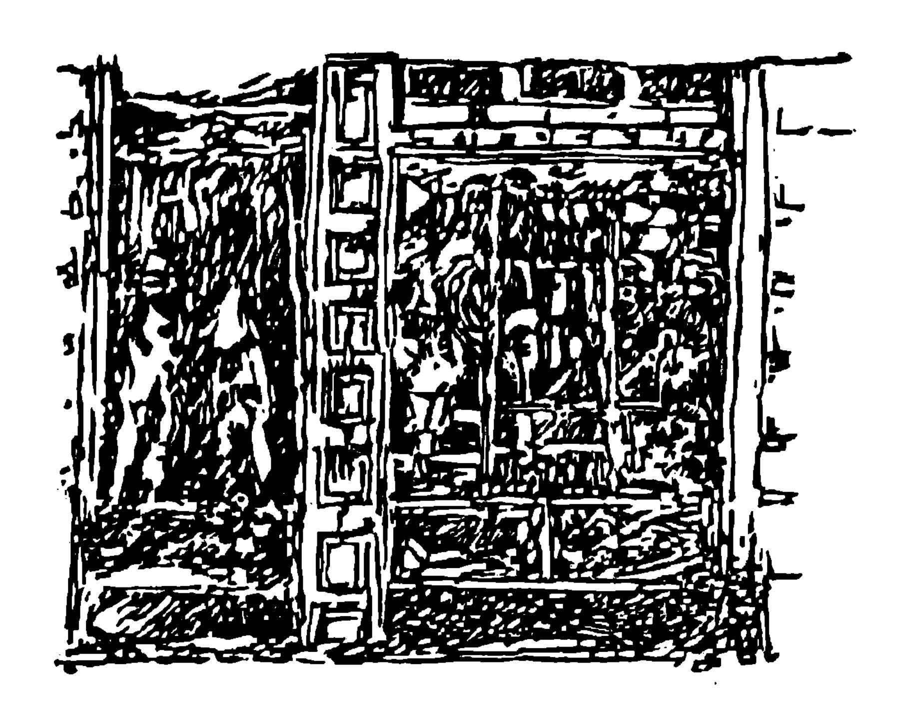
الحاجة، حرية سحب مبالغ صغيرة من المبلغ الكبير. وأود أن أحيطكم علماً بأني مقتصد. سوف أتصرف بالهبة بكل حرص، مثل رجل رصين واعٍ بهدفه، أي بكل حذر، وسأتوجه بشكري إلى المحسنات الودودات بكتاب رزين ولطيف، وأنوي أن أقوم بذلك صباح غد، كي لا يؤدي التأجيل إلى النسيان. أما افتراضك الذي عبرتَ عنه قبل حين بكل صراحة، بأني فقير، فيُحتمل على كل حال أن يستند إلى ملاحظة ذكية وصحيحة. ولكن يكفي تماماً أن أعرف أنا ما أعرفه عن نفسي، وأني خير من يعرف ذلك عن نفسه. المظهر غالباً ما يخدع ياسيدي، وإطلاق حكم على إنسان، يُفضَّل أن يُترَك لهذا الإنسان نفسه. فالإنسان الذي رأى وخبر الكثير لا يستطيع أحد معرفته حق المعرفة مثل نفسه. لقد ضللتُ طريقي في ما مضى في الضباب وفي ألف نوع من التقلبات والحيرة، وكثيراً ما أشعر بنفسي مهجوراً ببؤس مقيت. لكنني أفكر بأن من الجمال بمكان أن يكافح الإنسان. الإنسان لا يفخر بأفراحه ومسراته، إنما الصعاب التي تغلب عليها بشجاعة والآلام التي تحملها بصبر هي وحدها ما يجعله فخوراً وفرحاً من عمق روحه. لكن المرء لا يهدر الكلام حول هذا الموضوع. هل من إنسان نزيه لم يمر في حياته مطلقاً بحالة عجز، وهل من جوهر إنساني حقيقي لم يفقد بمرور السنين آمالاً وخططاً وأحلاماً؟ أين هي الروح التي تحقق

توقها وتمنيها الجسور وتصوراتها الحلوة العالية عن السعادة، دون أن تضطر إلى التنازل عن أجزاء منها؟»

سُلِمتُ في يدي إيصالاً بألف فرنك، وبعد ذلك جاز لمودع المال الرصين ورجل الحساب الجاري، أي أنا ولا أحد سواي، أن يستأذن ويمشي. كنت سعيداً من أعماق قلبي بثروة ـ رأس المال التي هبطت علي كالسحر من السماء وأنا أغادر قاعة الخزينة الجميلة والعالية إلى الهواء الطلق لأكمل مشوار المشي.

أريد وأستطيع وآمل أن أتمكن من إضافة (بما أنه لا يخطر في بالي حالياً شيء جديد وذكي)، أني أحمل في جيبي دعوة كيّسة ومغرية من السيدة إبي. تطالبني بطاقة الدعوة بتهذيب وتحثني على القدوم في الساعة الثانية عشرة والنصف تماماً لتناول غداء متواضع. اتخذت قراري الحاسم بأن ألبي طلبها وأن أصل إلى دار السيدة الخلافية والحَرية بالتقدير في الموعد المحدد تماماً.

بما أنك أيها القارئ العزيز والرزين ستجشم نفسك عناء مرافقة كاتب ومبدع هذه السطور في الخروج إلى عالم الصباح المضيء الودود، دونما عجلة، إنما بكل ارتياح وتؤدة وسلاسة، في خشوع وهدوء، فسنصل معاً إلى أمام متجر المعجنات الآنف الذكر، ذي اللافتة المكتوبة بحروف ذهبية، وسنشعر بما



يحفزنا على الوقوف بانزعاج لنبدي دهشتنا المحزونة تجاه التبجح الفظ والتشويه المحزن المرتبط به لصورة شخصيتنا المحلية.

رفعت صوتي بعفوية: «وحق الرب، يحق للرجل الشريف أن يشعر بالسخط لمرأى مثل هذه البربرية في كتابة اسم المخبز بحروف ذهبية، تسِم المكان الذي نقف فيه بطابع الأنانية والجشع للمال وعنف الروح بصورة عارية بائسة. هل يحتاج حقاً معلم خباز بسيط ونزيه للإعلان عن نفسه بمثل هذا التفخيم، لأن يسطع تحت الشمس بلافتة ذهبية وفضية ولأن يلمع مثل أمير أو مثل سيدة مغناج مريبة؟ فليخبز ويعجن خبزه بشرف وبتواضع يتماشى مع العقل! في أي عالم مخادع سنعيش أو قد بدأنا نعيش، إذا كان أهالي النواحي والجوار والرأي العام لايغضون النظر فحسب بل وللأسف الشديد يمتدحون هذه الظاهرة، التي تهين كل حس سليم وتفكير صائب وذوق جمالي وإنصاف أخلاقي، ظاهرة التباهي المرَضي بأن يسبغ المرء على نفسه مظهراً مبتذلاً مضحكاً يصيح في الهواء النقي الطاهر من مسافة مئة متر وأكثر: ' أنا فلان الفلاني، أملك الكثير من المال وغيره، ويحق لي استثناء نفسي بأن يفقأ مظهري العين. صحيح ومؤكد أني شخص وضيع وأحمق وبلا ذوق بثيابي الباذخة البشعة، ولكن لايحق لأحد أن يمنعني من أن أكون وضيعاً

وأحمق'. هل هناك أي علاقة سليمة وواضحة، من أي نوع كان، بين حروف ذهبية شديدة البريق ومضيئة بشكل مقرف وبين الخبز؟ أبداً! لكن العجرفة والتبجح البغيضين بدأا في زاوية ما، عند منعطف ما، في ساعة ما من هذا العالم، مثل طوفان مؤسف تعيس باجتياح الأرض باندفاع مستمر، جارفاً معه قذارات وأوساخ وحماقات موزعاً إياها حول العالم، فأصابا أيضاً معلم الخبز الشريف، ليفسدا ما كان يملكه من ذوق جيد وليخربا عفته الفطرية. أنا مستعد لتقديم الكثير، مستعد للتضحية بذراعي اليسرى أو بساقي اليسرى، إذا كان في مثل هذه التضحية ما يساعد في استعادة ذاك الحس القديم بالطهر، وتلك القناعة الخيرة، وفي إستعادة ذلك الحس بالشرف والتواضع للناس والبلد، تلك الخصال التي فُقدت، لأسف الكثير من الناس الذين يعنيهم الأمر منزهاً عن أية أغراض. إلى الشيطان بالإدمان على تظاهر الإنسان بما ليس فيه. إنها لكارثة حقيقية، جلبت على البشر خطر الحرب والموت والبؤس والحقد والجراح، وألبست وجوه الجميع أقنعة لعينة من شر وقبح. وهكذا فإن العامل اليدوي بالنسبة لي ليس مسيو، والمرأة البسيطة ليست مدام. لكن الجميع اليوم يريدون أن يلمعوا ويبرقوا، أن يكونوا جديدين وأنيقين وجميلين، الكل يريد أن

يكون مسيو ومدام، بحيث بات الأمر رهيباً مفزعاً. ولكن بمرور الزمن قد يتغير الحال ثانية. إني آمل ذلك.»

وفي ما يتعلق بالظهور الرجولي والسلوك الراقي، حسبما سيعرف القارئ فوراً على كل حال، فإني سأنتقد نفسي ذاتياً. أما الأسلوب الذي سأتبعه فسيتوضح في حينه. ليس جميلاً أن أنتقدَ آخرين بلا هوادة، فيما لا أقرب نفسي إلا ببالغ النعومة وبكل مداراة ممكنة. والناقد الذي يفعل هذا ليس ناقداً حقيقياً، ولا يجوز للكتّاب أن يسيؤوا استخدام الكتابة. آمل لهذه الجملة أن تجد قبولاً عاماً وتوقظ رضا وتلاقي استحساناً.

هنا على يسار الطريق الزراعي ثمة مسبك معادن مليء بالعمال وبالعمل ويسبب ضجيجاً لافتاً. وبهذه المناسبة أخجل من نفسي حقاً لكوني أتمشى وحسب، فيما يكدح آخرون كثيرون ويكدون. من المحتمل أن أكد وأنتج لاحقاً، بعد ما يكون كل هؤلاء العمال قد أنهوا عملهم والتفتوا لراحتهم.

زميل قديم على دراجة هوائية، من كتيبة جيش الدفاع ٣/ ١٣٤ يقول لي أثناء عبوره: «يبدو لي أنك تتمشى ثانية في عز يوم عمل.» فحييته ضاحكاً واعترفت بسرور بأنه محق في رأيه بأني أتمشى. 'أنت ترى من هيأتي أني أتمشى'، فكرت بصمت وتابعت دربي بسلام، دون أن أنزعج إطلاقاً من كوني ضُبِطتُ

متلبساً وأنا أتمشى، الأمر الذي كان سيكون تعبيراً عن محض غباء.

بكل صراحة، بدوت لنفسي في البدلة الإنجليزية الصفراء الفاتحة، التي جاءتني هدية، مثل لورد كبير أو نبيل عظيم أو ماركيز يتمشى في حديقة قصره، على الرغم من أني كنت على طريق زراعي في ضاحيةٍ نصف ريفية نصف مدينية فقيرة بسيطة متواضعة وعزيزة، وليس في حديقة فخمة، حسبما جرؤتُ على التنويه، وها أنا أسحبه بتؤدة، لأن كل ما يتعلق بأجواء پارك أو حديقة قصر هو محض خيال لاينتمي إلى هنا، حيث تتناثر بصورة عشوائية في الأرض الخضراء معامل صغيرة وكبيرة وورشات ميكانيكة. في المنطقة هنا تتصافح زراعة دسمة ودافئة مع صناعة تطريق وسكب، يحمل نتاجها دائماً صفة معالجات هزيلة. وأشجار الكستناء والكرز والخوخ منحت الطريق الطري والمنحني شيئاً جذاباً مسلياً ورقيقاً. ثمة كلب مستلق عرضانياً في منتصف الطريق، الذي وجدته في واقع الأمر جميلاً وأحببته. إني أحب عموماً معظم ما أراه بالتدريج، حباً فورياً جامحاً. رأيت مشهدين قصيرين جميلين آخرين مع كلب وأطفال بالشكل التالي: ثمة كلب ضخم لكنه لذيذ جداً وغير خطير، يراقب بصمت صبياً قزماً متكوراً على درج دار، وبسبب اهتمام الكلب الطيب ذي المنظر المرعب به، أخذ الصبي يعول ويبكي بقوة



كعادة الأطفال. وجدتُ المشهد ساحراً؛ لكن مشهد أطفالٍ آخر في مسرح الطريق الزراعي وجدته ألطف وأكثر سحراً. هناك طفلان صغيران جداً جالسان على الطريق المغبر وكأنهما في حديقة. قال الأول للثاني: «أعطني قبلة حب صغيرة.» أعطاه الثاني المطلوب بإلحاح ثم قال له: «هكذا! الآن يجوز لك النهوض عن الأرض.» كان هذا على الأغلب غير مسموح له به دون القبلة اللذيذة، والآن صار يحق له ذلك. 'كم ينسجم هذا المشهد القصيرالبسيط مع السماء الزرقاء الجميلة، التي تضحك للأرض الفرحة الخفيفة الشاطرة!' قلت في نفسي. 'الأطفال سماويون، لأنهم يتواجدون دوماً في ما يشبه السماء. وعندما يكبرون تتلاشى من حولهم السماء، فيسقطون حينها من طفولتهم إلى السجية الجافة النفعية وإلى آراء الكبار المملة. بالنسبة لأطفال الفقراء يعتبر الطريق الزراعي في الصيف بمنزلة غرفة اللعب. وإلا فأين سيتواجدون، مادامت الحدائق موصدة في وجوههم للاستخدام الشخصي وحسب؟ ويل للسيارات المسرعة التي تقتحم لعِب الأطفال وسماءَ الطفولة، فتعرِّض للخطر كائنات بشرية صغيرة وبريئة، بأن تدعسهم. لا أريد حتى التفكير بهذه الفكرة المروعة، أن تدعس إحدى هذه العربات الفاخرة طفلاً حقاً، لأن الغضب سيدفع بي إلى استخدام تعبيرات فظة، من المعروف أنها لا تنفع في شيء أبداً'.

هؤلاء الذين يقودون السيارات بسرعة تثير الغبار، أريهم أنا دائماً وجهي الغاضب القاسي، لأنهم لا يستحقون أفضل من ذلك. وعندها يظنون أني مراقبٌ وشرطي في ثياب مدنية، مكلف من الجهات العليا والمسؤولة بمراقبة السِواقة، فأسجل أرقام لوحات العربات المخالفة لأعلم أصحابها بالمخالفة لاحقاً. وعندها أنظر بعبوس دائماً إلى الدواليب، إلى السيارة كلها، إلا اني لا أنظر مطلقاً إلى الركاب، الذين أحتقرهم، ليس شخصياً على الإطلاق، بل من حيث المبدأ؛ إذ إني لا أفهم ولن أفهم أبداً، كيف يمكن أن يستمتع الإنسان بأن يتجاوز مسرعاً كل المباني والأشياء التي تتشكل منها أرضنا الجميلة، وكأن المرء قد جن وبات مضطراً للركض مسرعاً كي لا ييأس. أنا في الواقع أحب الهدوء وكل ماهو ساكن، أحب الاقتصاد والتواضع، وأنا في أعماق دخيلتي لا أميل إطلاقاً إلى أي شكل من الصخب والعجلة. لست بحاجة لقول ما يزيد عن الحقيقة. وهذه الكلمات حتماً لن تؤدي إلى إيقاف قيادة السيارات، بالإضافة إلى الرائحة السيئة المفسدة للهواء، التي من المؤكد أن لا أحداً سيُطري عليها ويحبها. ومن المُنافي للطبيعة أن يحب أنفُ أحدهم ويرغب بسرور في استنشاق ما يزعج ويثير القرف، علماً بأن تشمم الأنف الطبيعي قد يتبدل ببساطة حسب الحالة المزاجية للشخص. كفى الآن وعسى خيراً، ولأتابع التمشي. ما أجمل



وأحسن وأقدم أن يمشي المرء على قدميه ببساطة، مع افتراض أن الحذاء وملحقات الجزمة جيدة ومريحة.

أتوجه بكلامي إلى السادة المحترمين، من رعاة الأدب والقراء، الذين لربما تقبلوا بأريحية أسلوبي الحماسي المبالغ نوعاً ما في زخرفته وعَذروه، فهل سيتكرمون ويسمحون لي بأن ألفت أنظارهم إلى شخصيتين أو كائنتين أو امرأتين مهمتين على نحو خاص، الأولى منهما ويُفضل أن أقول أولاهما، أزعم أنها كانت ممثلة، والثانية مغنية شابة واعدة؟ أنا أعتقد بأهمية محتملة لهاتين الكائنتين، ولهذا فقد منحتهما الثقة مسبقاً، قبل أن تظهرا وتفعلا في الواقع العملي، لتقدما نفسيهما وتعلنا عن شخصيتيهما، كي تسبقهما هالة من الأهمية، فتُستقبلان حال ظهورهما ويُنظر إليهما بكل التقدير والحب العطوف، وبذلك تلقى، بالضرورة تقريباً، وجهة نظري المتواضعة بمثل هذه الكائنات، جزاءها الوافي. في الساعة الثانية عشرة والنصف سيقوم المؤلف، حسبما بات معروفاً، مكافأة لجهوده الكثيرة، بتناول الغداء في قصر أو دار السيدة إبي، ولسوف يتلذذ بالطعام. وحتى ذلك الحين عليه أن يقطع مسافة محترمة من الطريق وأن يكتب العديد من السطور. ولكن صار معلوماً بما يكفي أن حبه للمشي يماثل حبه للكتابة، وإن كان الأخير على الأغلب أقل مسرة بدرجة من الأول.

أمام بيت جميل ونظيف كما في صورة، رأيت على طرف الطريق الجميل امرأة جالسة على مقعد. وما أن وقع نظري عليها حتى وجدت في نفسي الجرأة على مخاطبتها، منتقياً ما أمكنني أكثر التعبيرات أدباً ولطفاً، وقلت:

«أرجو أن تعذريني، إذا كنت كإنسان غريب عنك كلياً، قد تجرأت لدى مرآك على طرح السؤال المندفع والجسور بالتأكيد، الذي قفز إلى شفتي، أيحتمل أنك في ما مضى قد كنت ممثلة؟ لأنك في الواقع تشبهين إلى حد كبير ممثلة وفنانة مسرحية عظيمة، شهيرة ومُحتفى بها. مؤكد أنك تستغربين وبكل حق هذا الخطاب المثير للدهشة والجَسور والسليط ربما، ثم سؤالي؛ إلا أنك تملكين وجهاً جميلاً ومظهراً لطيفاً يثير الإعجاب، والاهتمام كذلك، لابد لي من أن أضيف، إن لك قواماً بالغ الجمال والنبل والرشاقة، تبدين منتصبة طويلة القامة وتشعين هدوءاً من حولك ونحوي وإلى العالم، بحيث استحال علي أن أمر بك في سيري، دون أن أجرؤ على أن أبثك كلاماً مهذباً ومجاملاً، أرجو ألا تستائي منه، على الرغم من خشيتي، أني أستحق عقاباً واستهجاناً. عندما رأيتك حضرتني للتو فكرة أنك لابد كنتِ ممثلة، واليوم، هكذا فكرتُ، تجلسين هنا على طرف الطريق البسيط، والجميل رغم ذلك، أمام محلك الصغير الجميل الذي يتراءى لي أنك مالكته. ربما لم يخاطبك أحد هنا

حتى اليوم هكذا دون مقدمات ومبررات. إن مظهرك الخارجي الودود والأنيق في الوقت نفسه، وطلتك الجميلة المحببة، هدوءك، هيئتك الرائعة ومظهرك الخارجي الأصيل والمتيقظ رغم تقدم العمر، الذي عليك أخذه في الحسبان من بعد إذنك، هذا كله شجعني على بدء حديثٍ ألفةٍ معك على قارعة الطريق. كما أن هذا النهار الجميل، الذي يبهجني صحوه وانطلاقه قد أولع في نفسي فرحاً دفعني ربما إلى التمادي في الكلام مع السيدة الغريبة. إنك تبتسمين! هذا يعني أنك لست مستاءة إطلاقاً من لغتي غير المتكلفة. يبدو لي، إنْ جاز القول، إنه لأمر جميل ومستحسن بين الحين والآخر أن يتبادل غريبان الحديث مع بعضهما بحرية وبراءة، ففي نهاية المطاف، نحن سكان هذا الكوكب التائه الفريد واللغز بالنسبة لنا، نملك الفم واللسان والكفاءة اللغوية لذلك، وهذه الأخيرة تُعد بحد ذاتها، في واقع الأمر، غاية في الجمال والغرابة. أنت على كل حال، حزتِ على إعجابي القلبي بمجرد أن رأيتك؛ والآن يتوجب علي تقديم اعتذاري لك بكل احترام، مع رجائي لك بأن تكوني على قناعة تامة، بأنك توحين لي بأكثر مشاعر الهيبة دفئاً. أيمكن لهذا الاعتراف الصريح بأني كنت في غاية السعادة لمرآك، أن يتسبب في غضبك مني؟»

«بل إنه ليسعدني»، قالت السيدة الجميلة بانشراح؛ «أما

بخصوص تخمينك فلا يسعني إلا أن أخيب ظنك. أنا لم أكن ممثلة قط.»

بناء على ذلك شعرت بما يحفزني على أن أقول: «قبل مدة من الزمن جئتُ إلى هذه المنطقة من ظروف قاسية قارسة حزينة وضيقة، مريضاً داخلياً، من دون أي إيمان، دون طمأنينة ودون ثقة، وكذلك دون أي تفاؤل جميل، مغترباً عن العالم وعن نفسي وفي حالة عداء معهما. أسرني الخوف والارتياب ورافقاني في كل خطوة أخطوها. ثم تدريجياً تساقط عني الحكم المسبق البشع والحقير. فصرت هنا أتنفس ثانية بهدوء وعلى نحو أكثر حرية وصرت من جديد إنساناً أكثر جمالاً وسعادة. المخاوف التي كانت تملأ قلبي رأيتها تتلاشى بالتتالي؛ الحزن والسأم في القلب والشعور بفقدان الأمل تحولوا بالتدريج إلى رضا مشرق وإلى اهتمام مريح ونشط، تعلمتُ الشعور به من جديد. كنتُ ميتاً، وها أنا الآن أشعر كمن رفعه أحدهم وانتشله. وحيث كنت أعتقد بأني سأصطدم لابد ببشاعات وصعوبات وإزعاجات، بت ألقى الفتنة والطيبة وأجد كل الهدوء والثقة والخير.»

«والخير للأمام»، قالت المرأة بصوت وتعبيرِ وجهٍ ودودين.

لـمّا بدا لي أن اللحظة قد حانت لأتابع طريقي، منهياً الحديث الذي بدأ إلى حد كبير متعمَداً، حييت المرأة، التي



ظننتها ممثلة، والتي ظهر للأسف أنها ليست ممثلة عظيمة وشهيرة، لأنها وجدت من الضروري أن تنفي ذلك، ولابد لي من القول، بأدب جم وعبارة منتقاة، فحنيت لها رأسي ومشيت بسلام، وكأن لا شيئاً قد حدث إطلاقاً.

سؤال بسيط: هل تجلى حتى الآن اهتمام بالغ ربما، بمحل مواد تجميل. أنيق تحت أشجار خضراء، إضافة إلى تصفيق حماسي؟

أنا أؤمِن بهذا بقوة، لذلك سأجرؤ على نقل الخبر المتواضع التالي، وهو أني في أثناء تقدمي مشياً على الطريق الأجمل بين الطرقات قاطبة، أطلقت من حنجرتي صيحة فرح عالية، كانت ساذجة إلى حد كبير وصبيانية، لدرجة أني أنا نفسي لم أعتقد بإمكانية أن يصدر مثلها مني. ما الجديد الجميل الفريد الذي اكتشفته؟ ولو، إنه بكل بساطة محل مواد التجميل وصالون الموضة. باريز وبطرسبورغ، بوخارست وميلانو، لندن وبرلين، كل ماهو أنيق وصارخ وبشكل رئيسي كل ما ينتمي إلى موضة المدن الكبرى اقتربَ مني وتبدى لعيني ليفتنني ويسحرني. ولكن في العواصم والمدن العالمية تنقص زينة الشجر الأخضر الوديع، الزينة وحُسن المروج الخضراء والكثير من أوراق النباتات الناعمة وليس آخراً رائحة الزهور، وهذا متوفر هنا. ’كل هذا’، هكذا قررتُ بصمت أثناء وقوفي ساكناً، ’سأكتبه

قريباً بالتأكيد في خاطرة أو في نوع من الفنتازيا وسيكون عنوانها «مشوار المشي». ولايجوز أن ينقص فيها محل القبعات النسائية هذا بأي حال من الأحوال. وإلا فإن الفنتازيا ستفقد سحراً تلوينياً عالياً، لكنني سأحسن جيداً تجنب هذا النقص وسأعرف كيفية جعله مستحيلاً.' كانت الأرياش والأشرطة والفواكه الاصطناعية والزهورعلى القبعات اللطيفة والغريبة مثيرة بالنسبة لي وذات دفء أليف مثل الطبيعة نفسها، التي بخضارها الأصلي وألوانها الطبيعية تؤطر الألوان الاصطناعية وأشكال الموضة الفنتازية وتحتويها بطريقة تجعل محل مواد التجميل يبدو كمجرد لوحة بهيجة. إني أعتمد هنا، كما سبق أن قلت، على الفهم الدقيق من جانب القارئ، الذي أخافه بكل صراحة. وهذا الاعتراف البائس بالجبن أعتبره مفهوماً. فهكذا كان حال جميع الكتاب الأكثر مني جرأة.

يا إلهي! ماذا أرى أيضاً تحت أوراق الشجر! يالها من دكان قصّاب حلوة ولطيفة وساحرة بلحوم خنزير وعجل وغنم وردية اللون. القصاب منهمك في داخل الدكان، حيث يقف مشترون أيضاً. دكان القصاب هذا يستحق صيحة إعجاب لاشك، فهو بنفس قيمة محل القبعات. وسآتي ثالثاً على ذكر دكان للتوابل. ولاحقاً سأتعرض لمختلف أنواع الحانات والمطاعم، وسيكون هذا عما قريب حسبما يبدو لي. لاشك في أن المرء لا يمكنه

التعامل مع المطاعم في وقت متأخر من النهار، فذلك تترتب عليه عواقب يعرفها الإنسان، وبما يكفي للأسف بالنسبة لكل فرد. فحتى أكثرها فضيلة واستقامة لايجوز لصاحبها أن ينكر أن ثمة عادات سيئة لا يفلح في التحكم بها أبداً. ومن حسن الحظ أن الإنسان بشر ـ وبصفته هذه من السهل قبول أعذاره.وهو يحيلنا ببساطة إلى ضعف المؤسسة الاقتصادية.

لابد لي هنا من تجديد معلوماتي. إني أفترض بأني سأنجح في إعادة تشكيل وتوزيع القطعات مثل أي قائد جيش يحيط علماً بجميع الظروف ويحسب حساب المصادفات والنكسات في شبكة، واسمحوا لي هنا باستخدام تعبير، حساباته العبقرية. الإنسان المتابع يقرأ مثل هذه المسائل في الصحف يومياً، ويحفظ في ذاكرته تعابير مثل: هجوم من الجانب. وقد توصلتُ في الآونة الأخيرة إلى قناعة بأن فن الحرب وإدارة الحرب يماثلان فن الأدب من حيث الصعوبة وتطلب الصبر، والعكس صحيح. فالكتّاب كما الجنرالات يقومون غالباً بتحضيرات طويلة الأمد قبل أن يجرؤوا على اتخاذ خطوة نحو المعركة، أو بكلمات أخرى، قبل أن يدفعوا بعمل أو كتاب إلى سوق الكتب، وهذا سيشكل تحدياً ويحرض بالتالي على هجمات مضادة هائلة. الكتب تغري بكتابة مراجعات، يحتمل أن تكون ساخطة، ما قد يؤدي إلى موت الكتاب ويأسِ المؤلف!

لا داعي للاندهاش إذا قلت بأني أستخدم الريشة المعتمدة في محاكم الرايخ في كتابة هذه الأسطر، التي أرجو أن تترك انطباعاً لطيفاً ورشيقاً. ومن هنا يتأتى الاقتضاب اللغوي والإيجاز والدقة، التي يلمسها القارئ في بعض المواضع، فلا حاجة لأن تثير استغراب أحد في ما سيلي.

ولكن متى سأصل أخيراً إلى الأطايب المستحقة جداً عند سيدتي إبي؟ أخشى أن علي الانتظار طويلاً حتئذ، إذ مازالت هناك عوائق ملحوظة ينبغي إزالتها. وحتى ذلك الحين ستكون الشهية قد بلغت ذروتها.

وفيما كنت أتابع مشواري كصعلوك أحسن شأناً، كشريد أنيق، كنشال أو كعطّال بطال أو كأحد شذاذ الآفاق إلى جانب حدائق متخمة بارتياح بكل أنواع الخضار، مروراً بورود وأريجها، مروراً بأشجار فاكهة، مروراً بأعواد الفاصولياء وشجيرات البازلاء، مروراً بسنابل حبوب منتصبة عالياً من حنطة سوداء وشوفان وقمح، مروراً بساحة مليئة بالأخشاب والنشارة، مروراً بحشيش نضر وساقية أو جدول أو نهير يتدفق بهدوء، مروراً بكثير من الناس وبنساء لطيفات حلوات يبعن بضاعتهن في السوق، مروراً بدار جمعية مزدانة بأعلام صغيرة بهيجة الألوان، ومروراً كذلك بأشياء كثيرة أخرى فيها خير وفائدة، ومروراً بشجرة تفاحِ حورياتٍ ذات جمال استثنائي، والرب

وحده يعلم بكم من الأشياء الأخرى مررت، مثل شجيرات توت العليق وأحواض الفراولة الحمراء الناضجة، وفي أثناء ذلك كانت تشغلني باستمرار مختلف أنواع الأفكار، أغلبها جميل ولطيف، فخلال المشي تخطر الأفكار في البال كبرق خاطف أو كالتماعات تحتشد من نفسها لتجد من ثم معالجاتها بعناية، وإذا بإنسان هائل، بضخامة مخيفة، يحجب نور الشمس عن الطريق كله تقريباً، فتسود العتمة، شخص طويل جداً وعريض البنية، لم ألتق به وأعرفه إلا قليلاً للأسف، شاب فريد وغريب، إنه العملاق تومْتساك.

كان يُحتمل أن أتوقع ظهوره في جميع الأمكنة الأخرى وعلى جميع الطرقات الأخرى، إلا على هذا الطريق الزراعي الناعم المحبوب. كان مظهره المليء بالحزن والمرعب، وطبيعته التراجيدية المهولة تملآني فزعاً وتسلبان مني كل ما هو خير وجميل ومشرق وكل المرح والفرح. إنه تومتساك! أليس كذلك عزيزي القارئ، إن اسمه وحده يوحي بأمور مخيفة ومحزنة. «لماذا تطاردني، ما الضرورة في أن تلاقيني هنا في وسط طريقي، أيها المنكود البائس؟»، صحت في وجهه، لكن تومتساك لم يجبني بأي كلمة. حدق فيّ، أي أنه نظر من عليائه إليّ تحت؛ إذ كان أطول مني بمسافة كبيرة. بدوت لنفسي إلى جانبه مثل قزم أو مثل طفل صغير مسكين وضعيف. كان بوسع

العملاق بكل سهولة أن يدوسني أو يمعسني. آه، لقد عرفت من هو. بالنسبة إليه لا يوجد راحة. كان يجول في العالم بقلق. لم ينم في أي سرير طري، ولا في أي دار ذات طابع بيتٍ سُمح له بالسكن. كان يبيت في كل مكان ولا مكان. لا وطن له ولا يملك حق مواطنة. كان بلا وطن وبلا سعادة؛ دون أي حب ودون فرح إنساني في حياته. لم يشارك الآخرين في شيء، مثلما لم يشارك أحدٌ في شؤونه وحياته. الماضي والحاضر والمستقبل كانوا بالنسبة إليه صحراء بلا ماهية، والحياة في نظره كانت قليلة جداً، ضيقة جداً وصغيرة جداً. لم يكن هناك معنى لأي شيء بالنسبة إليه، وهو بالتالي لا يعني شيئاً لأحد. كان ينبعث من عينيه لمعان كمدٍ من عوالم عليا أو من عوالم سفلى. وحركاته المتعبة المرتخية كانت تنطق بحزن لانهائي. لم يكن ميتاً ولا حياً، لا مسناً ولا شاباً. بدا لي أن عمره يبلغ مئة ألف سنة، وبدا لي أنه سيعيش إلى الأبد، كي يبقى غير حي إلى الأبد. كان يموت في كل لحظة، ومع ذلك لا يقدر على الموت. وليس له قبر مع ورود. ابتعدت عن طريقه وهمست: «وداعاً، خفف عنك أيها الصديق تومتساك.»

دون أن ألتفت إلى الظاهرة الشبحية، إلى العملاق المنكود، إذ حقاً لم تكن لدي أي رغبة في ذلك، تابعت طريقي متمهلاً في الهواء الدافئ الطري، وأنا أطرد عني الانطباع العكر، الذي



خلفته فيَّ هيئة الرجل الغريبة أو هيئة العملاق بالأحرى، وسرعان ما وصلتُ إلى غابة شجر تنوب، يتمايل عبرها بدلال درب أنيق يبتسم عابثاً، فتبعته بسرور. كان الدرب وأرض الغابة مثل سجادة، وفي قلب الغابة ساد سكون كما في روح إنسان سعيد، كما في داخل معبد، كما في قصر وكما في قصر أحلام مسحور في الحكايات الخرافية، كما في قصر الأميرة النائمة، حيث ينام كل شيء ويسكت منذ مئات السنوات الطويلة. توغلت إلى العمق، وربما كنت أُجَمِّل كلامي في قولي إني بدوت لنفسي مثل أمير بشعر ذهبي وجسم مغطى بدروع قتالية. كان الجو داخل الغابة على درجة من الاحتفالية، بحيث تتوارد التخيلات الجميلة الاحتفالية من نفسها وتستحوذ على الماشي الحساس. كم كنت سعيداً بسكون الغابة الحلو وهدوئها! بين الحين والآخر كان يتناهى من الخارج ضجيج ضعيف إلى عزلة الغابة اللطيفة وعتمتها الفاتنة، كخبطةٍ أو صفرةٍ أو أي صوت آخر، يعزز بُعدُه السكون المهيمن، الذي كنت أستنشقه بلذة قلبية وأرتشف تأثيره جرعة فجرعة. ومن قلب الصمت وهدأة السكون هنا وهناك انطلق طائر يغرد من مخبوئه الساحر المقدس. توقفت في مكاني وأصغيت، وفجأة غمرني إحساس بالعالم فوق الوصف، مرتبطاً بشدة بشعور بالامتنان منطلقٍ من الروح. كانت أشجار التنوب منتصبة كالشموع كالأعمدة ولم

يتحرك أي شيء إطلاقاً في رحاب الغابة الحنون، التي كان يرن في أنحائها ويتصادى كل أنواع الأصوات غير المسموعة. أتت أنغام من العالم الأسبق، من مصادر لا أعرفها وتغلغلت في أذني. 'أوه، هكذا أريد أنا أيضاً أن أنتهي وأموت، إنْ كان لابد من ذلك. ثمة ذكرى ستسعدني بعد ذلك في قبري، وامتنان سيحييني في موتي؛ كلمة شكر للمسرات، للفرح، للبهجة؛ كلمة شكر للحياة وفرحة فوق الفرح'. من ذرى أشجار التنوب سمعت حفيفاً خفيفاً يتهادى نزولاً. 'هنا لابد من أن يكون الحب والتقبيل جميلين بصورة إلهية'، قلت في نفسي. مجرد الخطو على الأرض المريحة صار متعة، كما حرض الهدوء صلوات في الروح الشاعرة. 'لابد من أن يكون أمراً حلواً أن يموت المرء هنا ويدفن بصورة غير ملفتة في تربة الغابة الرطيبة. آه لو يشعر المرء بمتعة الموت في الموت! لربما كان الأمر كذلك. أن يحصل المرء على قبر صغير هادئ في الغابة، سيكون جميلاً. فلربما سأسمع تغريد الطيور وحفيف أشجار الغابة فوقي. كم أتمنى هذا لنفسي'. سقط عمود من أشعة الشمس بين جذوع البلوط على أرض الغابة فبدا لي مثل قبر أخضر حبيب. بعد قليل خرجت ثانية إلى النور والفسحة وإلى الحياة.

تبدى أمام عيني الآن مطعم، وفي واقع الأمر مطعم لطيف

جداً جذاب ومغوٍ، قريب من حافة الغابة، التي خرجت لتوي منها، مطعم بحديقة لذيذة مليئة بظلال مريحة. تقع الحديقة على تلة ناعمة ذات إطلالة واسعة، وإلى جانبها تنهض أو تنتصب تلة اصطناعية إضافية أو برج مستدير صغير، يمكن للمرء الوقوف على سطحه والتمتع بالإطلالة الباهرة. لا بأس على الإطلاق بشرب كأس بيرة أو قدح نبيذ هنا؛ لكن الرجل الذي يتمشى هنا يراجع نفسه في الوقت المناسب، فهو ليس بصدد مسير مجهد بأي حال من الأحوال. الجبال التي تحتاج إلى جهد كبير تقع هناك في البعيد المتلألئ بزرقة محاطة بهالة من البياض. عليه أن يعترف لنفسه صادقاً بأن ظمأه ليس قاتلاً ولا كافراً، ما دام لم يقطع حتى الآن إلا مسافات بسيطة نسبياً. فالأمر يتعلق هنا بمشوار مشيٍ ناعم لطيف، وليس برحلة تجوال، وبالأحرى بطواف هاذئ وليس بمسير عسكري، ولهذا فإنه سيغض النظر بحق وتعقل عن الدخول إلى دار المسرات المنعشة ويغادر. من المؤكد أن جميع الجادين، الذين سيقرؤون هذا سيصفقون بحمية لقراره الجميل ولإرادته الطيبة. ألم أنتهز الفرصة قبل ساعة للإعلان عن صبية مغنية؟ هاهي تظهر الآن.

وفي الواقع من شباك في الطابق الأرضي.

لقد خرجت لتوي من منعطف الغابة وعدت ثانية إلى الطريق الزراعي، فسمعت عندها ـ ولكن قف! توقفتُ لباقة لاستراحة

قصيرة. والكتّاب الذين يفهمون مهنتهم يأخذون الأمر نفسه بالهدوء الممكن، فيسرهم بين الحين والآخر أن يتركوا الريشة من أيديهم قليلاً. إذ إن الكتابة المستمرة تُتعِب مثل الشغل في الأرض.

ما سمعته من شباك الطابق الأرضي كان ألطف وأنظف صوت شَنّف أذنَيَّ المتفاجئتين كغناء أوپرالي ـ شعبي وكحفلة موسيقية مجانية تماماً قبل الظهر. في شباك أحد بيوت الضاحية الفقيرة وفي ثوب فاتح اللون، وقفت فتاة يافعة تكاد تكون تلميذة بعد، رغم قامتها الطويلة والرشيقة، وأخذت تصدح في الهواء ببساطة بشكل ساحر. مذهولاً بارتياح كبير ومفتوناً بالغناء غير المتوقع انتحيت جانباً، كيلا أزعج المغنية وكيلا أفقد إمكانية الاستماع والاستمتاع. بدت الأغنية التي غنتها الصبية من النوع المرح الطروب؛ وكان وقع الأنغام كالسعادة النابعة من حب بريء للحياة وللحب؛ كانت الأنغام تبدو مثل ملائكة في أثواب بيضاء كالثلج وأجنحة من فرح، صاعدة نحو السماء، لتعاود السقوط منها نحو الأرض، حيث تموت مبتسمة، كالموت همّاً أو ربما نتيجة فرح غامر أو سعادة غامرة بالحب والحياة أو نتيجة عدم القدرة على الحياة نابعٍ من تصورٍ لها مبالغٍ في غناه وجماله، بحيث أن الفكرة المتدفقة بنعومة حباً وسعادة والمندفعة إلى الوجود بدت نوعاً ما متسرعة تتعثر بنفسها. عندما وصلت الصبية، بغنائها البسيط والغني والفاتن في الوقت نفسه،

إلى خاتمة موتسارت أو أغنية الراعيات الذائبة في صوتها، اقتربتُ منها وحييتها وطلبت منها السماح لي بتهنئتها على صوتها الجميل وعلى أدائها غير العادي المشحون روحياً. وفنانة الغناء اليافعة، التي بدت مثل غزال أو ريم في هيئة فتاة، نظرت إلي بعينين بنيتين جميلتين مندهشة ومتسائلة. كان لها وجه ناعم وجذاب جداً وتبتسم بأدب وود يوحي بالثقة. فقلت لها: «سيفيدك أن تدربي صوتك الجميل الفتي الغني وتؤهليه برعاية وعناية، وهذا يحتاج إلى درايتك الذاتية بالإضافة إلى خبرة آخرين، لتحققي مستقبلاً لامعاً ومسيرة فنية عظيمة؛ إذ تبدين لي، بصدق وصراحة، أنك سوف تكونين مغنية الأوبرا العظيمة في المستقبل! فمن الواضح أن جوهرك ذكي، وأنت نفسك ناعمة ومطواعة، وتمتلكين، إن لم تخدعني تخميناتي كلياً، شجاعة روحية فريدة. كما تتصفين بنبل القلب وتأججه، لقد سمعت ذلك لتوي من الأغنية التي أديتِها بجمال وجودة حقيقية. لديك الموهبة، وأكثر منها: العبقرية بلا شك! وأنا لا أُسمِعك هنا كلاماً فارغاً وبعيداً عن الحقيقة. ينبغي علي أن أرجوك، أن تولي موهبتك الأصيلة الرعاية الحقة، وأن تحميها من التشويه والتحريف ومن الاستهلاك المبكر بتهور. لايسعني حالياً سوى أن أقول لك، إنك تغنين بجمال باهر، وأن هذا بالغ الجدية؛ فهو يعني الكثير، وبالدرجة الأولى أن تتابعي الغناء يومياً

باجتهاد. تدربي وغني باعتدال ذكي وجميل! أنت نفسك لا تعرفين مدى وحجم الكنز الذي تمتلكين، هذا مؤكد. إن في مقدرتك الغنائية درجة عالية من الرنين الطبيعي منذ الآن، وكماً غنياً من الهويات المجهولة والحياة، ووفرة من الشعر والإنسانية. أعتقد أنه يجب علي أن أعلن وأؤكد لك أنك ستصيرين مغنية أصيلة بكل معنى الكلمة، لثقتي بأنك إنسان يندفع الغناء من جوهره حقاً، ويبدو أنك لن تعرفي العيش والاستمتاع بحياتك إلا عندما تباشرين الغناء، بحيث تحولين كل متعة العيش إلى فن الغناء، على نحو يتسامى معه كل ما هو إنساني ومهم ذاتياً وكل ما له معنى ومفهوم إلى شيء علوي، إلى مثال. في الغناء الجميل هناك دائماً وفي الوقت نفسه ضغط وتكثيف لخبرة وإحساس وشعور، إنها كليّة قابلة للانفجار من حياة ضيقة وروح متوثبة، وبمثل هكذا غناء بوسع المرأة إن استفادت من الظروف المواتية وصعدت السلم، الذي تصنعه المصادفات، كنجم في السماء، أن تحرك بفن الصوت وجدان الكثيرين وتكسب ثروات كبيرة وأن تنتزع من الجمهور تصفيقاً حماسياً عاصفاً وأن تجذب إلى نفسها إعجاب وحب ملكات وملوك.»

بجدية ودهشة سمعت الفتاة الكلمات، التي قلتها لها، وقلتها في الواقع لمتعتي الشخصية، أكثرمن أن أحظى بإعجاب الصغيرة وفهمها، الذي لايكفي نضجها له بعد.



رأيت من بعيد عبّارة سكة القطار التي لابد لي من عبورها؛ لكني لم أكن مستعداً للأمر بعد؛ إذ كان علي قبل ذلك، وهذا ما لابد من معرفته، إجراء تفويضين أو ثلاثة والتوصل إلى بعض الاتفاقات الضرورية التي لا محيد عنها. بشأن هذه التفويضات يُفترض كتابة أو تقديم تقرير معقد ودقيق ما أمكن. أرجو أن يسمح لي القارئ تعطفاً بأن أشير إلى أني في أثناء مشواري يجدر بي المرور على خياط تفصيلٍ أنيق للرجال أو أتوليه للخياطة، بسبب بدلة جديدة يجب أن أقيسها أو أجري تعديلات عليها. ثانياً، يجب علي تسديد ضرائب ثقيلة في دار البلدية أو مديرية المالية، وثالثاً يُفترض بي حمل رسالة مهمة إلى البريد لأرميها في صندوق الرسائل. وهكذا يرى المرء ما علي إنجازه من مهماتٍ كثيرة ومدى امتلاء مشوار تسكعي المريح ظاهرياً بأعباء عملية، ولهذا سيتكرم عليّ القارئ ويعذر بعض الإرجاآت ويرضى بالتأخيرات ويستحسن الجدالات المطولة مع موظفين إداريين وعمال مهنيين، حتى أنه قد يرحب بها كإضافات وإسهامات بغية تحقيق التسلية. وبسبب جميع الإطالات والإسهابات والإفاضات التي ستنشأ هنا، أقدم مسبقاً اعتذاري الشديد حسب الظروف، فهل سبق أن وُجِد كاتب من المحافظة أو العاصمة أكثر مني خجلاً تهذيباً تجاه حلقة قرائه؟ لا أظن،

ولذلك فإني سأتابع سردي ودردشتي بكل ارتياح ضمير، وأسجل ما يلي:

بحق الأرباب الألف، ألم يحن الوقت بعد للقفز إلى دار السيدة إبي للأكل أو لتناول طعام الغداء. الساعة تعلن الآن عن الثانية عشرة والنصف. من حسن الحظ أن السيدة تسكن على مقربة شديدة مني. كل ما أحتاجه هو أن أنسل مثل حنكليس إلى دارها، كمن ينسل إلى جحر أوكما إلى مأوى الفقراء الجوعى ومن غدر بهم الزمن.

السيدة إبي استقبلتني بأكثر ما يمكن من الود واللطف. دقة مواعيدي كانت تحفة فنية، ومن المعروف أن التحف الفنية نادرة. ابتسمت السيدة إبي بكل تهذيب عند ظهوري. قدمت لي بأسلوبها القلبي الجذاب الذي سحرني، إن جاز التعبير، يدها الصغيرة وقادتني إلى غرفة الطعام مباشرة، حيث رجتني الجلوس إلى المائدة، وقد لبيت رجاءها طبعاً بكل سرور وطبيعية. ومن دون اصطناع أية تكليفات سخيفة بدأتُ ببراءة وانطلاق بالأكل وبالسكب في صحني بحمية، غير متوقع نهائياً ما ينتظرني اختباره. بدأت إذن بالأكل بشهية والسكب بحمية، والشجاعة التي من هذا القبيل لا تكلف، كما هو معروف، إلا القليل من تجاوز العقبات. وبشيء من الدهشة لاحظت خلال انهماكي بأن السيدة إبي كانت تنظر إلي بما يقارب العبادة، وكان

هذا لافتاً نوعاً ما. يبدو أن مشاهدتي وأنا أسكب وآكل كانت بالغة التأثيز فيها. لقد أدهشتني هذه الظاهرة المستغربة، التي لم أولِها كبير اهتمام. وعندما أردت الدردشة وتبادل الحديث معها، منعتني عن ذلك بقولها إنها مستغنية بكل سرور عن أي نوع من تبادل الحديث. كلامها الغريب جعلني أرتاب في الأمر، وبدأت أشعر بخوف وقلق. وسراً في داخلي أخذت أرتعب من السيدة إبي. وعندما أردت التوقف عن قطع اللحم وبلعه، لأني شعرت بشبعي بوضوح، قالت لي بلسان حلو وتعبير وجه ناعم تقريباً وبنبرة لومٍ أمومية: «إنك لا تأكل شيئاً. انتظر، سأقطع لك من هنا قطعة كبيرة وطرية جداً.» غمرني الفزع وشجعت نفسي على الاعتراض بكل تهذيب، بأن السبب الرئيسي لقدومي إليها هو التبادل الفكري، فأجابت من وراء ابتسامة جذابة، بأنها لا ترى لذلك أي ضرورة. «يستحيل أن أتمكن من متابعة الأكل»، قلت بصوت عميق ومضغوط. كنت على وشك الاختناق وقد سال عرقي خوفاً. قالت السيدة إبي: «يستحيل علي الاعتراف بأنك تريد التوقف عن الأكل، عن القطع والبلع، كما أني لا أصدق بتاتاً أنك شبعت حقاً. أنت حتماً لا تقول الحقيقة بقولك إنك على وشك الاختناق. إنني أميل إلى الاعتقاد بأنها مجاملة لا أكثر. إنني، كما قلت لك، مستغنية عن أي نوع من تبادل الحديث الفكري، وبكل سرور. أنت أتيت إلي بشكل رئيسي

حتماً لتثبت أنك تمتلك شهية ولتبدي أنك آكل قوي. وهذا الرأي لا يجوز لي التخلي عنه مهما كانت الظروف. لذلك أرجوك بحرارة أن ترضى بما لابد منه؛ لأني أؤكد لك ألاّ إمكانية أخرى أمامك لمغادرة المائدة، سوى هذه، ألا وهي أن تأكل كل ماقطعتُه وما سأقطعه لك وتبلعه دون أن تترك منه شيئاً. أخشى أنك ضائع بلا إنقاذ؛ إذ لابد لك من أن تعرف، أن هناك ربات بيوت تجبرن ضيوفهن على السكب والبلع إلى أن ينفجروا. ومصيرك أنت سيكون بائساً وتعيساً؛ لكنك ستحتمله بشجاعة. على كل واحد منا ذات يوم أن يقدم تضحية عظيمة. فأطعني وكُلْ. كم الطاعة حلوة. ما الضرر إذا هلكت في أثناء ذلك؟ إليك هذه القطعة الكبيرة البالغة النضج والطراوة، ستلتهمها حتماً من أجلي، أعرف ذلك. هيا، تشجع يا صديقي العزيز! نحن جميعنا نحتاج إلى الشجاعة. ما قيمتنا، إذا كنا نريد دائماً الإصرار على إرادتنا الخاصة. ركز قواك كلها واضغط على نفسك لإنجاز الأكبر ولحمل الأثقل ولتحمل الأقسى. قد لا تصدق كم تسعدني رؤيتك وأنت تأكل إلى أن تفقد الوعي. ولا تتصور كم سأغتم إذا أردتَ تجنب ذلك؛ ولكنك لن تفعل، أليس كذلك؛ سوف تنهش وتبلع حتى ولو امتلآت حتى حلقك.»

«أيتها المرأة المرعبة، لماذا تسومينني هذا العذاب؟» صرخت

وأنا أنهض عن الطاولة بسرعة وأبدي استعدادي للانطلاق هارباً. لكن السيدة إبي أوقفتني، أطلقت ضحكة عالية من صميم قلبها، واعترفت لي بأنها قد أجازت لنفسها أن تمزح معي مزحة، تأمل من طيبة قلبي ألا أستاء منها. «أردتُ أن أعطيك مثالاً فحسب، عن بعض ربات البيوت، اللواتي من شدة لطفهن تجاه ضيوفهن يكدن يندلقن.»

وأنا أيضاً شاركت في الضحك طبعاً، ولابد لي من الاعتراف بأن السيدة إبي قد أعجبتني جداً في مجونها. أرادت إبقائي في جوارها طوال فترة بعد الظهر، وقد انزعجت قليلاً عندما أخبرتها باستحالة منادمتها للأسف، لاضطراري إلى إنجاز أعمال لا تقبل التأجيل. وأحسست بإطراء غامر لسماعي تأسف السيدة إبي الصادق على اضطراري إلى المغادرة بسرعة ورغبتي في ذلك. سألتني عما إن كان الأمر ملحاً حقاً لدرجة أن أنتزع نفسي من الجلسة وأمضي، ما جعلني أقسم لها مؤكداً على أن الضرورات القصوى وحدها هي القادرة على إبعادي عن هذا المكان الدافئ المريح وجذبي بعيداً عن هذه السيدة الفاتنة المحترمة، وبهذه الكلمات ودعتها ومشيت.

ما يتوجب علي الآن تحقيقه هو الانتصار على خياط ذي آراء راسخة لا تهتز، بضبطه بشكل مباغتٍ يهز قناعاته، فهو عنيد لا يخطئ ومعلم بارع في حرفته، وعلى قناعة من جميع زوايا النظر

بقيمة قدرته الإنجازية. إن شلَّ تماسك معلمية الخياطة يجب أن يُعد في أصعب المهمات وأكثرها مشقة، من التي تتطلب جسارة وتنطوي على المثابرة في دفع القرار الجريء قدُماً. ودائماً تنتابني خشية قوية من الخياطين وآرائهم؛ لكني لا أشعر بأي شكل من الأشكال بالخجل من هذا الاعتراف المحزن، إذ إن الخشية هنا قابلة للتفسير ومفهومة. لذلك كنت الآن مستعداً للأسوأ والأشرس، وسلحت نفسي لهذه الحرب الهجومية البالغة الخطورة بصفات من قبيل الجسارة والعناد والسخط والغضب والاحتقار أو احتقار الموت، وبهذه الأسلحة الجديرة بالتقدير لاشك، أمِلت التمكن من مواجهة التهكم الجارح والسخرية المتوارية خلف طيبة قلب وسذاجة مزعومة، بنجاح المنتصر.لكن ما وقع جاء خلاف ذلك، غير أني سأكتم الموضوع إلى إشعار آخر، فالأعجل هو أن عليّ توصيل رسالة إلى مكتب البريد، وقد قررت لتوي التوجه أولاً إلى البريد وبعده إلى الخياط ومن ثم لدفع ضرائب الدولة. البريد وهو بناء منظره يسر العين كان في واقع الأمر على مسافة خطوة من أرنبة أنفي؛ دخلته بمرح ورجوت موظف البريد المسؤول أن يعطيني طابعاً لصقته على الرسالة. وفيما كنت أنزل الرسالة بحذر في الصندوق راجعت ودققت بعقلي المفكر ما كتبته فيها. وحسبما بقي مطبوعاً جيداً في ذاكرتي كان مضمونها كما يلي:



السيد المحترم جداً!

إن هذا الأسلوب العجيب في المخاطبة يتوخى التوكيد لكم على أن المرسِل بارد جداً حيالكم. أنا أعرف أن إبداء الاحترام تجاهي، غير منتظر منكم ومن الذين يشبهونكم؛ فأنتم وأشباهكم تُقدِّرون أنفسكم بصورة مبالغ فيها، وهذا يعيق بلوغكم الإدراك والمراعاة. أنا أعرف حق المعرفة أنكم من ذلك الصنف من الناس، الذين يَبدون لأنفسهم كعظماء، لأنكم أفظاظ لاتبالون بأحد، تظنون أنفسكم أقوياء لأنكم تحظون بحماية ومحاباة، وتعتقدون أنكم حكماء لمجرد أن مفردة 'حكيم' خطرت على بالكم. الناس من أشباهكم يتجاسرون على الفقراء والمستضعفين بقسوة ووقاحة وخشونة وعنف. أمثالكم يمتلكون الذكاء الاستثنائي ليقنعوا أنفسهم بضرورة الوقوف في القمة في كل مكان، وأن يحوزوا الثقل المرجح حيثما تواجدوا، وأن ينتصروا في كل أوقات النهار. أمثالكم لا يلاحظون البلاهة في هذا، فهو ليس في نطاق الممكن ولا في إطار المرغوب فيه. أمثالكم متبجحون وجاهزون في كل الأوقات لخدمة العنف بكل حَمية. أمثالكم يُظهِرون منتهى الجراءة في التجنب الحذر لكل ما يتطلب شجاعة حقيقية، لمعرفتهم بأن كل شجاعة حقيقية قد تسبب ضرراً، وتتجلى جراءتهم دوماً في الظهور بمظهر الأخيار الطيبين ويُبدون في ذلك الكثير من الرغبة والحَمية. الناس من

أمثالكم لا يحترمون السن ولا المناقب، وهم بالتأكيد لايحترمون العمل. أمثالكم يحترمون المال، واحترام المال يعيقهم عنْ احترام أي شيء آخر جدير بالاحترام. إن مَن يعمل بنزاهة ويبذل الجهد والاجتهاد يُعتبر في عيون أمثالكم حماراً أصلياً. لستُ مخطئاً في حكمي، إذ حتى خنصري الصغير يقول لي إني محق. ولدي الجرأة لأن أقول في وجهكم صراحة إنكم تسيؤون استخدام منصبكم، فأنتم تعرفون جيداً مدى ما يسببه تصويب مساركم من إزعاجات ومضايقات، ولكن في الحظوة والرعاية اللتين تنعمون فيهما والشروط المناسبة المحيطة بكم، مازلتم موضع طعن في جدارتكم، وأنتم تشعرون بلا شك بتأرجحكم الشديد. إنكم تخونون الثقة ولا تفون بوعودكم، وتلحقون الضرر، دون تفكير، بقيمة وسمعة الذين يتعاملون معكم، وتستغلون دون رادع ولمصلحتكم الخاصة ما تزعمون أنها أعمال خيرية، تخونون المنصب وتفترون على الخادم الصدوق، إنكم متقلبو المزاج جداً ولا يُعتمد عليكم، وتُبدون صفات يعذرها المرء بسرعة، إن بدرت عن فتاة ولكن ليس عن رجل. اعذروا سماحي لنفسي بأن أعتبركم في غاية الضعف، وليكن في علمكم مع التوكيد الصادق، أني أرى النصيحة في الابتعاد كلياً عن التعامل معكم مستقبلاً، مع الحفاظ، على كل حال، على الحد الضروري والدرجة المناسبة عامة من

الاحترام، من إنسان كافأه القدر بالسرور المتواضع طبعاً بالتعرف بكم.

كدت أندم الآن على ائتماني البريدَ وسيلةً لنقل وتسليم هذه الرسالة المنفلتة اللسان، حسبما تراءى لي لاحقاً؛ فقد أعلنتُ فيها حرباً شرسة على شخص متنفذ في منصب رفيع، بأن قطعت معه العلاقات الدبلوماسية، والأفضل: الاقتصادية، بتلك الطريقة المثالية. لكني على كل حال تركت رسالة إعلان العداء لتأخذ مجراها، مواسياً نفسي بقولي إن هذا الإنسان أو السيد المحترم جداً سوف لن يقرأها، ربما، لأنه منذ قراءته الكلمة الثانية أو الثالثة وتمتعه بها، سيشبع تماماً ربما، ومن دون أن يضيع وقتاً وجهداً سيرمي السيل الملتهب في سلة المهملات، التي تستقبل وتحتوي كل ما ليس مرغوباً فيه. و'إضافة إلى ذلك فإن أموراً من هذا القبيل تُنسى بطبيعة الحال خلال نصف أو ربع سنة'، هكذا استنتجتُ وتفلسفت وغادرت بشجاعة باتجاه الخياط.

كان الخياط جالساً بسرور، وعلى ما يبدو بأهدأ ضمير في الدنيا، في صالونه للموضة أو ورشته الأنيقة، المملوءة والمحشوة بأقمشة وفضلات قماش تعبق بروائح جميلة. وفي قفص أو مسكن طيور كان ثمة عصفور يزقزق، كي تكتمل الجنة، وصانع شاطر ونشيط منشغل بالقص. عندما وقع نظر

المعلم دُنْ عليّ نهض باحترام عن كرسيه، الذي كان منهمكاً عليه بإبرة الخياطة، ليرحب بالقادم بأدب. «أنت آتٍ بسبب بدلتك، التي ستستلمها من ورشتي في القريب العاجل منتهية وجاهزة للبس لاشك بالشكل المناسب تماماً دون نقيصة»، قال وهو يمد لي يده بزمالة تكاد تزيد عن حدها، والتي لم أنفر من مصافحتها بقوة، وأجبته قائلاً: » أتيت دون تأخير ويملؤني الأمل إلى موعد القياس لأُطَمْئن مخاوفي من أمور عديدة».

قال السيد دُن إنه يعتبر مخاوفي كلها زائدة عن الحاجة، فهو يضمن القَصَة وتناسبها على جسمي، وقادني أثناء ذلك إلى غرفة مجاورة، انسحب هو منها فوراً. كرر ضمانته وأكدها عدة مرات، الأمر الذي لم يلاق صدى إيجابياً في نفسي. بسرعة تجهزت بروفة القياس وما ارتبط بها من خيبة أمل عميقة. وفيما كنت أحاول كبح انزعاج متصاعد، صحت بصوت عال وعنيف منادياً السيد دن، الذي رميتُ في وجهه رأيي: «هذا ما كنت أظنه!»، بأكثر ما يمكن من الاسترخاء والتعبير الراقي عن الاستياء.

«يا سيدي العزيز المحترم، لاتزعج نفسك بلا ضرورة!»

وبجهد جهيد تمكنت من أن أقول: «بل توجد هنا وفرة من الأسباب لأن ينزعج المرء وييأس. احتفظ لنفسك بمحاولات

التهدئة غير المناسبة بتاتاً وتوقف رجاء عن الرغبة في تهدئتي؛ لأن ما فعلتَه في تفصيل وخياطة بدلة بلا عيوب يثير أعلى درجات القلق. إن جميع مخاوفي، الصغيرة منها والكبيرة قد تحققت. كيف تجرؤ على ضمان القَصَة ومناسبتها لجسمي بلا عيوب، وكيف يمكن أن تمتلك الشجاعة لتؤكد لي على أنك معلم في مهنتك، في حين يجب عليك بقليل من النزاهة وبدرجة معقولة من الصدق والاحترام أن تعترف دون جدال بأني قد خُدعت تماماً وبأن البدلة الخالية من العيوب، التي على ورشتك المحترمة الممتازة تسليمي إياها قد ضاعت؟»

«إني أحتج بشدة على تعبير'ضاعت'، إذا سمحت.»

«وأنا أحاول أن أتماسك يا سيد دُن.»

«أشكرك وكلي سرور لقصدك هذا.»

«إسمح لي إذن بمطالبتك بإجراء تعديلات جذرية على هذه البدلة، اعتماداً على بروفة القياس التي جرت للتو بكل عناية، والتي أظهرت كومة من الأخطاء والنواقص والعيوب.»

«هذا ممكن.»

«إن عدم الرضا والانزعاج والحزن الذي أحس به، يدفعني لأن أقول لك، إنك قد أغضبتني.»

«أقسم لك، إني آسف لذلك.»

«إن الحمية التي تبديها في القسم على أسفك للتسبب في إغضابي وتحويلي إلى أسوأ مزاج، لاتغير شيئاً من حال البدلة المليئة بالعيوب، والتي أرفض أدنى درجات الاعتراف بها، مثلما أرفض قبولها بكل حزم، ما دام الحديث عن التصفيق لنجاحها والموافقة عليه غير وارد. أشعر بشأن الجاكيت أنه قد جعل مني أحدبَ بوضوح، وبالتالي إنساناً قبيح الهيئة، مشوهاً، لا يمكنني القبول به بأي حال من الأحوال. بل أشعر بما يحرضني على الاحتجاج ضد الحشوة اللئيمة وتشويه جسمي. الكمَّان يشكوان من طول مفرط مثير للقلق، والصدرية تتبدى لافتة للنظر بصورة توحي وكأن للابسها كرشاً كبيراً. البنطال أو السروال شنيع بكل بساطة. قَصة البنطال وتنفيذها أشعراني حقيقة بالرعب، فحيث يُفترض بهذه القطعة الفنية السخيفة والمضحكة والتعيسة أن تكون على شيء من الاتساع، أبدت ضيقاً خانقاً، وحيث يفترض أن تكون ضيقة جاءت فضفاضة. إن إبداعك يا سيد دُن، بالمختصر المفيد، يفتقر إلى الخيال، وشغلك يدل على نقص في الذكاء. هذه البدلة توحي بشيء تعيس، سخيف، تافه، منزلي، وبشيء مخيف. إن مَن أنجزه تفصيلاً وخياطة لا يجوز حتماً أن يُعدّ في الطبائع المفعمة بالروح. والمؤسف أنها طبيعة تفتقر إلى أية موهبة.»

أما السيد دُن فقد امتلك الجسارة على أن يقول لي: «إني لا



أفهم سخطك، ولن يدفعني أي شيء لفهمه مطلقاً. هذه التهم العديدة والجسيمة، التي تعتقد بضرورة توجيهها إلي، غير مفهومة من ناحيتي، وستبقى على الأغلب على وضعها، غير مفهومة. البدلة متناسبة جداً مع جسمك، ولن يقنعني أحد بغير ذلك. وقناعتي بأنك تبدو فيها بديعاً، أعتبرُها قناعة راسخة، وخلال وقت قصير ستعتاد فيها على ميزات وخاصيات معينة. بعض كبار موظفي الدولة يوصونني بتفصيل ملابسهم الفاخرة جداً، وكذلك السيد الفاضل رئيس المحكمة. يكفيك هذا دليلاً دامغاً على كفاءتي في عملي. أنا لست مستعداً لقبول تصورات غريبة الأطوار، وبصفتي معلم خياطة فإني أرفض الطلبات المجافية للطبيعة. هناك أناس أرقى منك اجتماعياً وسادة من الأكابر عبَروا عن رضاهم عن كفاءتي ومهارتي من النواحي كافة. وهذا التلميح يكفي لتجريدك من سلاحك.»

لمّا اضطررت إلى إدراك أن من المستحيل التوصل إلى شيء، وكذلك نتيجة اعترافي ذاتياً بأن هجومي الناري العنيف قد انقلب إلى هزيمة مؤلمة ومخزية، سحبتُ قواتي من المعركة التعيسة، التي انهيتها برخاوة وفررت مجللاً بالخزي. على هذه الحال انتهت المغامرة الشجاعة مع الخياط. ودون أن ألتفت إلى أية أشياء أخرى أسرعت إلى مبنى الصندوق العام أو مكتب الضرائب لأدفع. ولكن لابد لي هنا من تصحيح خطأ فاضح.

الأمر لا يتعلق، حسبما خطر في بالي لاحقاً، بعملية دفع، وإنما حالياً فقط بمراجعة

شفهية لدى رئيس لجنة الضرائب وبتقديم تصريح رسمي. أرجو ألاّ يؤاخذني القارئ لهذا الخطأ وليتفضل بالاستماع إلى ما سأقوله بهذا الشأن. مثلَ معلم الخياط دُن الصامد الراسخ ووعده بتقديم بدلة لاغبار عليها وضمان ذلك، كذلك فإني بصدد التصريح الضريبي المُزمع تقديمه أعد بالدقة والتفصيل وفي الوقت نفسه بالاقتضاب والإيجاز وأضمن ذلك.

سأقفز من فوري إلى قلب الحالة المشوِّقة المشار إليها: «إسمح لي بأن أخبرك»، قلت بكل صراحة لمحصِّل الضرائب أو لموظف الضرائب الكبير، الذي أعارني سمع أولي الأمر ليصغي بالاهتمام الواجب إلى التقرير الذي قدمته، «بأني بصفتي كاتباً مسكيناً وصاحب قلم أو من رجال الأدب، أعيش بدخلٍ يثير الحفيظة. لذلك لايمكن في حالتي طبعاً رؤية أو العثور على أي أثر لمراكمة أي نوع من الثروات. إني مع الأسف الشديد أقر بذلك، ولكن من دون أن أيأس أو أبكي من الواقع البائس. إني أجرّ نفسي بعوز، كما يقال. لا أمارس أي نوع من الرفاهية، ويمكنك إدراك ذلك من النظرة الأولى إلي. الطعام الذي أتناوله يمكن وصفه بأنه يكاد يكفي وبمشقة. ربما خطر في بالكم الظن، بأني أتمتع بمداخيل مختلفة، لكنني مضطر للوقوف

بأدب ولكن بتصميم في وجه أي اعتقاد أو تخمينات من هذا القبيل، ولقول الحقيقة العارية البسيطة، ألا وهي في كل الأحوال، إني خاوي الوفاض مِن أية ثروات، لكني مقابل ذلك مُحمّل بكل أصناف الفقر، فأرجو أن تتكرم وتسجل هذا عندك. في أيام الأحد لا أجيز لنفسي الخروج إلى الشارع، لأني لا أملك ثياب الأحد. إني أَشبَه بفأر الحقل من حيث أحوال حياتي المتقشفة. حتى أن عصفور الدوري أكثر آمالاً في أن يصبح ثرياً من صاحب التقرير ودافع الضرائب الحاضر أمامكم. لقد ألّفتُ كتباً لم تنل إعجاب الجمهور للأسف، وكانت نتائج ذلك مقبضة للقلب. إني لا أشك ولو للحظة في أنك تدرك ذلك، وفي أنك بناء على ذلك تفهم وضعي المالي. ليس لي وضعية بورجوازية ولا سمعة بورجوازية؛ وهذا واضح كالشمس. ويبدو في وضعي هذا أني لن أكون قادراً على أية التزامات تجاه إنسان آخر. إن الاهتمام النشيط بالأدب الجميل شحيح، والنقد الذي لايرحم، والذي يعتقد الجميع بحق ممارسته على أعمالنا، يشكل سبباً قوياً آخر لإلحاق الأذى ويعيق مثل مكبحٍ تحقيق أي رفاه متواضع. ولحسن الحظ أن هناك رعاة وراعيات، رحيمين ورحيمات، يدعمونني ويدعمنني من وقت لآخر بأكثر الأساليب أصالة؛ إلا أن الهِبة لا تُعدّ دخلاً، والدعم لا يشكل ثروة. إنطلاقاً من كل هذه الأسباب البليغة والمقنِعة أود أن ألتمس

إعفائي من أي زيادة ضريبية أعلنتم عنها تجاهي، كما أرجوك، بل أناشدك تخفيض قدرتي على دفع الضريبة إلى أدنى مستوى ممكن.»

قال السيد المسؤول أو رئيس لجنة الضرائب: «لكنك تُشاهَد دائماً وأنت تتمشى!»

فأجبته: «لابد لي من أن أتمشى، لأحيي نفسي وللحفاظ على اتصالي مع العالم الحي، الذي إن لم أحس به، لن اقدر على كتابة نصف حرف ولا تأليف أبسط قصيدة سواء شعراً أو نثراً. دون الخروج للمشي سأموت، ومهنتي التي أحبها بشغف سيُقضى عليها. دون المشي والاستطلاع لن أتمكن من صياغة تقرير أو حتى موضوع صغير، ناهيك عن قصة طويلة كاملة. دون المشي لن أتمكن من تسجيل مشاهداتي وتدوين بحوثي، ولاشك في أن رجلاً ذكياً ونبيهاً مثلك سيفهم المسألة فوراً. في أثناء مشوار مشي جميل وطويل يخطر في بالي ألف فكرة عملية مفيدة. أما إن بقيت حبيس البيت، فسأتيبس وأتعفن بصورة تعيسة. التمشي بالنسبة إلي ليس صحياً وجميلاً فحسب، بل هو نافع ومفيد. التمشي يشجعني مهنياً وفي الوقت نفسه يسليني شخصياً ويبهجني، إنه متعة وله خاصية تحفيزي على مزيد من الإبداع، ويحثني عليه، لأنه يقدم لي عدداً كبيراً من الأشياء والأمور الصغيرة والكبيرة كمادة، أعالجها من ثم في البيت

بحمية ونشاط. مشوار التمشي يكون دائماً مليئاً بما يستحق المشاهدة والإحساس به من ظاهرات مهمة. ثمة تكوينات وقصائد حية وأمور سحرية وجماليات طبيعية يزخر بها عادة مشوار مشي لطيف، مهما كان قصيراً. فينبسط تاريخ الطبيعة وجغرافيتها بفتنة وأناقة أمام أحاسيس وعيني المتمشي اليقظ، الذي يتوجب عليه طبعاً ألا يسير غاض النظر، وإنما بعينين مفتوحتين صافيتين، إذا أراد أن ينكشف له المغزى الجميل والفكرة النفيسة والمبهجة للمشوار. فكِّر يا سيدي، كيف سيذوي الشاعر ويخفق بأسى، إن لم تنعشه الطبيعة الأم والأب والطفل مجدداً وباستمرار من ينبوع الخير والجمال. فكِّر، كيف أن الدرس والموعظة اللذين يتلقاهما الشاعر في الهواء الطلق الغنّاء يبقيان دائماً بالأهمية الكبيرة نفسها. دون مشاوير المشي وما يرتبط بها من مشاهدة الطبيعة، ودون هذا الاطلاع والاستقصاء الغني بالمواعظ الفاتنة، أشعر بنفسي كالتائه، وأكون كذلك أيضاً. يجب على مَن يخرج للمشي أن يراقب ويدرس بحب كبير كل شيء حي مهما صغُر، وليكن طفلاً، كلباً، بعوضة، فراشة، عصفوراً دورياً، دودة، وردة، رجلاً، داراً، شجرة، سياجاً، حلزوناً، فأراً، غيمة، جبلاً، ورقة شجر أو حتى ورقة دفتر بسيطة ومرمية، خطَّ عليها تلميذ مدرسةٍ شاطر وحبّاب أولى حروفه المتعثرة. أرقى الأشياء وأحطّها، أكثرها

جدّية أو خفة ظل، تشغل عنده نفس الدرجة من الحب والقيمة والجمال. لا يجوز أن يكون نرجسياً بالغ الحساسية ولا هشاً سريع التأثر. ويجب عليه دون أنانية أن يوزع اهتمامه بعناية على كل ماحوله؛ فمن خلال مشاهدة الأشياء وملاحظتها وحسب، يجب أن يكون مستعداً دائماً لأن يتفتح كلياً، ويضع جانباً همومه واحتياجاته وعيوبه، مضحيّاً بسرور كما الجندي الحق في الميدان. وإلا فإنه يتمشى بنصف قدرته على الملاحظة وبنصف عقل، وهذا لا قيمة له. يجب أن يكون في كل الأوقات مستعداً للرحمة والتعاطف وللتحمس أيضاً، وآمل أن يكون كذلك. يجب أن يكون قادراً على التحليق إلى أعلى درجات الحماسة وعلى الهبوط إلى أدنى الصغائر اليومية، وأظنه قادراً على ذلك. وفي المقابل سوف يسعده التماهي الصادق مع الأشياء والتلاشي فيها، مع الحب المعطاء تجاه ظواهر الحياة كافة، مثل الشعور الذي يتولد من أداء الواجب ومن الوعي بذلك، فيغني الذات. إن الفكر والعطاء والإخلاص سيغمرونه بسعادة فائقة ويرفعونه عالياً فوق الشخص البسيط الماشي، المنغمس عادة في رائحة التشرد وسمعته السيئة. إن بحوثه المتنوعة تلهمه وتمتعه، تشذّبه وتصفّيه، وتكاد تلامس دقة العلم، رغم عدم توقع أحدٍ صُدورَ هذا من متسكع مستهتر. أتعرف أني عنيد وجَلود في تشغيل رأسي، وغالباً ما أكون منهمكاً في عملي بكل ما تعنيه الكلمة،



في حين أبدو للآخرين خامل الفكر عاطلاً عن أي عمل، حالماً ضائعاً في زرقة السماء أو في خضرة الحقول، كسولاً، أولِّد أسوأ انطباع عن نفسي بأني نشال ومستهتر ولا أعرف المسؤولية؟ على نحو غامض وسري تتسلل إلى المتمشي أفكار مشيٍ متنوعة، جميلة ورهيفة، تجعله يتوقف وهو غارق في مشي نشيط يقظ، فيثبت وينصت، وهو مأخوذ حتى الغرق في انطباعات غريبة نابعة من سطوة أرواح ساحرة ومحتارٌ، ويخامره شعور وكأن على الأرض أن تبلعه فجاة، أو وكأن هاوية تنفتح أمام عيني المفكر والشاعر. رأسه يريد السقوط، وساعداه وساقاه البالغة الحيوية عادة قد تحجروا. الأرض والناس، الألحان والألوان، الوجوه والهيئات تدور حوله كالأطياف، وعليه أن يسال نفسه: «أين أنا؟» الأرض والسماء تسيلان وتندفعان معاً في تشكيل ضبابي غير واضح المعالم، يبرق ويومض ويلمع في أمواج هائلة متداخلة، لقد بدأت الفوضى وتلاشت الأنظمة. يحاول المذهول بجهدٍ الحفاظ على وعيه السليم، وينجح ويتابع مشواره بثقة. أتجد أن من المستحيل، في أثناء مشوار ناعم متئدٍ، أن ألتقي بعمالقة، وأن أحظى وأتشرف برؤية بروفِسورات، وأن أتعاطى 'عالماشي' مع موظفي مكتبات وبنوك، وأتحدث مع مغنيات يافعات واعدات وممثلات سابقات، وأتناول الغداء عند سيدات مثقفات، وأن أعبُر غابات

وأرمي رسائل في صندوق البريد، وأن أتشاجر مع معلمي خياطة ماكرين ساخرين؟ هذا كله يمكن أن يحدث وأعتقد أنه قد حدث فعلاً. الماشي يرافقه دائماً شيء غريب مشحون بالأفكار والفنتازيا، وسيكون من الحمق ألاّ يهتم بهذا الجانب الفكري أو أن يقصيه عنه؛ وهو لا يفعل ذلك؛ بل إنه يرحب بكل الظاهرات الفريدة والغريبة، يصادقها يربط نفسه معها بأواصر الود، لأنها تفتنه، فيسبغ عليها هيئاتٍ ذات أجسام وماهيات، يمنحها ثقافة وروحاً، مثلما تلهمه هي بدورها وتعلّمه. وبكلمة واحدة، إني أكسب خبز يومي بكدٍ مثل أي إنسان آخر، ولكن بالتفكير والإمعان فيه، بالحفر والتنقيب، بالتأمل والشعر، بالبحث والتدقيق والتمشي. وعندما يعبِّر وجهي ربما عن أقصى درجات التسلّي، أكون في منتهى الجدية والصدق، وعندما لا أبدو أكثر من لطيف حالم، فإني في الواقع كاتب محترف رصين! آمل أن كل هذه الإيضاحات المسهبة ستكفي لإقناعك بصدق مساعي وستنال رضاك.»

قال الموظف: «حسناً!» وأضاف: «إن التِماسَك المتعلق بتخفيض قدْر معدل الضريبة إلى الحد الأدنى سندرسه وندققه ونعلمك قريباً بجواب الرفض أو القبول. وبصدد تقرير واقع الحال الذي قدمته بود، وأقوالك الشارحة الصادقة فإننا نشكرك. يمكنك الآن الانصراف لمتابعة مشوار مشيّك.»

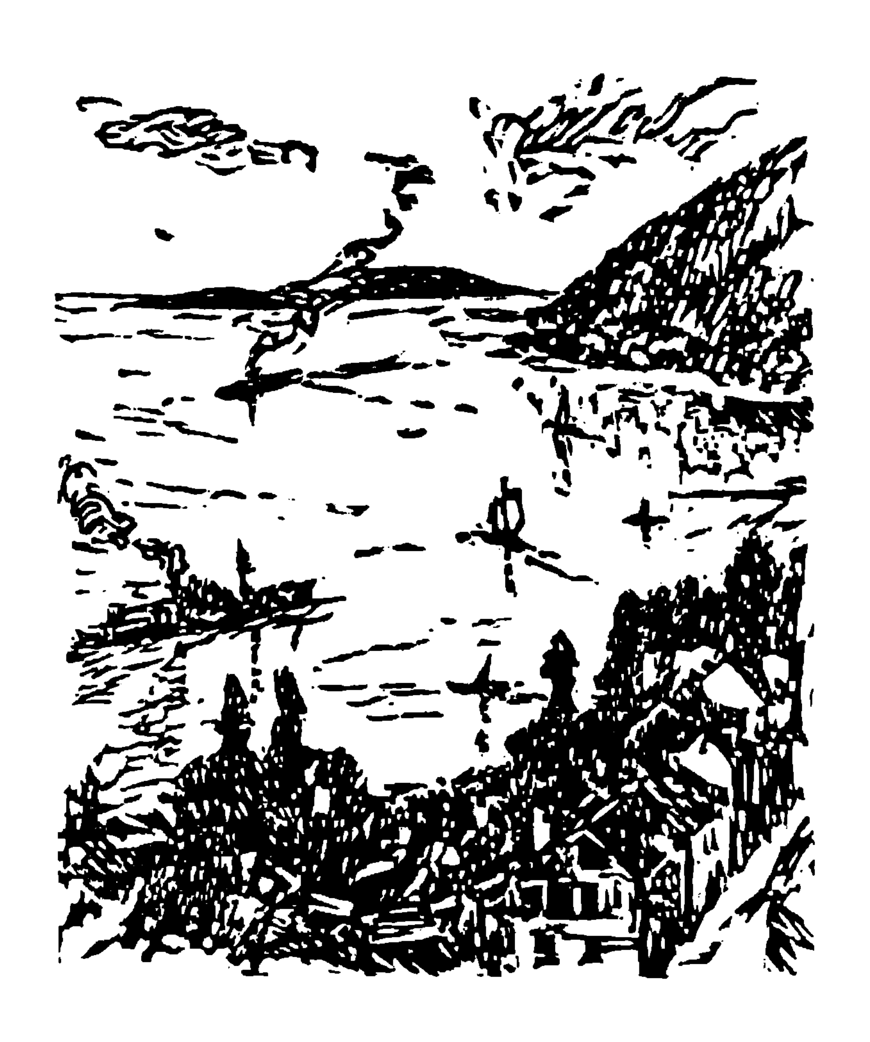
بما أني قد صُرِفتُ مرضياً عني، هرعت بسرور خارجاً، وسرعان ما عدتُ إلى الهواء الطلق. غمرتني حماسة الحرية ودفعتني إلى الأمام. وأخيراً، بعد كثير من المغامرات التي خضتها بنجاح، وبعد بعض العوائق الصعبة التي تجاوزتها إلى هذا الحد أو ذاك منتصراً، أصلُ الآن إلى معبر سكة القطار، التي سبق أن ذكرتها وأعلنت عنها، حيث اضطررت للتوقف فترة قصيرة ولطيفة منتظراً، إلى أن مر صاحب السمو القطار كله بتمهل وبكل طيبة. كان هناك أشكال وألوان من الناس، ذكوراً وإناثاً، من مختلف الأعمار والطباع، ينتظرون مثلي عند العارضة. وكانت ناظرة السكة البدينة واقفة بصمت مثل تمثال، تتفحص بدقة الواقفين حولها من المنتظرين. كان القطار العابر مليئاً بالعسكر، وجميع الجنود المكرسين لخدمة الوطن الحبيب الغالي كانوا ينظرون من النوافذ. كانت المدرسة العسكرية المسافرة من جهة والجمهور المدني غير المفيد من الجهة الأخرى يُحيّون ويلوّحون بعضهم للبعض الآخر بودٍّ ووطنية، بحركة نشرت في الجو شعوراً مبهجاً. بما أن المعبر قد خلا، تابعت وبقية المنتظرين طريقنا بأمان وهدوء، وبدت لي المنطقة المحيطة بكاملها الآن فجأة وقد غدت أجمل بألف مرة مما كانت عليه. بدا لي مشوار المشي أكثر جمالاً وغنىً، وكأنما سيكون أعظم. بدا لي معبر القطار باعتباره الذروة أو شيئاً يماثل

المركز، ومنه سيبدأ الانحدار بهوء ثانية. كنت أشعر مسبقاً بالبداية الناعمة لهبوط المساء، بشيء كبهجة ذهبية شجية وسحر كآبة حلوة تهف مثل نفحة إلهية عالية وصامتة. «الجمال هنا إلهي الآن»، قلت في نفسي. مثل أغنية وداع تستدر الدمع امتدت الأرض الغضة بمروجها وبساتينها ودورها اللطيفة المتواضعة. ومن جميع الأطراف تناهت إلي أصوات احتجاجات وآلام الشعب الطيب الفقير منذ أزمان سحيقة، وظهرت أشباح ضخمة وطرية بهيئات وأزياء ساحرة، وكانت الطريق الزراعية الطيبة العزيزة تشع بزرقة سماوية ممزوجة بالأبيض والذهبي. وفي الجو طاف الحنان والفتنة مثل هيئات ملائكية منحدرة من السماء فوق بيوت الفقراء التي لونتها وعانقتها أشعة الشمس بلون ذهبي وردي. فالحب والفقر ونفحة ذهبية فضية خرجوا يتأرجحون يداً بيد. وانتابني شعورٌ كأن إنساناً عزيزاً يناديني باسمي أو كأن هناك مَن يقبّلني ويواسيني. والرب القدير الرحيم تجلى على الطريق ليُمجِّدها ويُسبغ عليها جمالاً إلهياً. تخيلات وتهيؤات من كل صنف جعلتني أعتقد أن السيد المسيح قد قام وهاهو الآن يتجول بين الناس وسط المنطقة الحبيبة. والبيوت والبساتين والناس تحولوا إلى أنغام، ودبَّت الروح في الجمادات فتحركت برقة. وسبح كل شيء في وشاح فضي، وضباب روحي يغشى على كل شيء. لقد انفتحت روح العالم، وكل المعاناة، كل

الخيبات البشرية، كل الشرور، وكل ماهو مؤلم بدا أنه يتلاشى ويختفي، على ألاَ يعاود الظهور ثانية. تراءت أمام عينيّ مشاوير مشي سابقة، إلا أن صورة الحاضر المتواضع الرائعة غدت الإحساس المهيمن. بهت المستقبل وذاب الماضي. أنا نفسي كنت أتوهجِ وأُزهِر في توهجِ وإزهارِ اللحظة. من مسافات قريبة وبعيدة اقترب ماهو عظيم وخيّر مع إيماءاتِ إسعادٍ وإغناءٍ رائعة في لون فضي مضيء، فيما كنت منشغلاً في تخيلاتي الفنتازية وسط هذه المنطقة الجميلة، ولا شيء سواها، فقد تساقطت واختفت كل الفنتازيات الأخرى في اللامعنى. كانت الأرض الغنية بكاملها متمددة قربي، ومع ذلك لم أشاهد سوى المنطقة الأصغر والأشد تواضعاً. رفعَت السماء نفسها بإيماءات حب، وبمثلها عادت فهبطت. غدوتُ داخلياً وتمشيتُ كما في الداخل؛ فكل ما هو خارجيٌ أضحى حلماً، وكل ما كان حتى الآن مفهوماً، لم يعد كذلك. على السطح نزولاً هويتُ إلى الأعماق الخرافية التي أدركت للتو واللحظة أنها الخير. إنّ ما نفهمه ونحبه يفهمنا ويحبنا. أنا لم أعد نفسي، أصبحتُ آخرَ، ولهذا تحديداً عدت لأكون أنا نفسي ثانية. وفي نور الحب الحلو أدركت أو اعتقدتُ أن علي إدراك، أن الإنسان الداخلي هو وحده، لربما، الموجود فعلياً. وهاجمتني فكرة: «أين يمكن لنا نحن معشر الفقراء أن نكون، لولا وجود هذه الأرض الوفية؟ ما

الذي سيتبقى لنا، إنْ فقدنا هذا الجمال وهذا الخير؟ أين يُفترض بي أن أكون، إنْ لم يُسمح لي بالوجود هنا؟ هنا لدي كل شيء، أما في أي مكان آخر فلا شيء.»

ما رأيته كان صغيراً وتافهاً مثلما كان كبيراً ومهماً، كان متواضعاً مثلما كان فاتناً، كان دانياً وطيباً مثلما كان لطيفاً ودافئاً. غمرني فرح كبير لمرأى دارين بدتا لي مثل هيئتي جارين حيّين لطيفين ومتقاربين في نور الشمس الساطعة. وتتالت لحظات الفرح، وفي الهواء الطري الأليف حوَّم شعور بالانبساط أخذ يرتعش كما من فرحة محتبسة. إحدى الدارين الصغيرتين الأنيقتين كانت 'حانة الدب'، وكان الدب مرسوماً على اللافتة بشكل مضحك طريف. وكانت أشجار الكستناء تظلل الدار الطيبة الرشيقة التي يسكنها لاشك أناس لطاف ظراف ودودون؛ فالدار لم تبد مترفعة مثل أبنية كثيرة أخرى، بل تجسيداً للألفة والثقة. في كل مكان، حيثما يقع النظر، كانت هناك جنائن بهية وخضرة كثيفة متشابكة من أوراق أشجار وديعة. الدار الثانية أو البيت الصغير كان يشبه بجماله الخلوق وانخفاضه صفحة من كتاب مصور للأطفال أو رسمة حلوة وفاتنة تعكس فرادته. بدت الدنيا حول البيت الصغير كاملة الخير والجمال. فغرقتُ فوراً حتى مافوق أذني في غرام البيت الصغير الجميل كالصورة، ووددت من كل قلبي دخوله لأبني فيه عشي وأستأجره وأعيش



إلى الأبد في البيت الصغير الساحر وواحته الصغيرة فأنعم بالسعادة. لكن أجمل البيوت للأسف الشديد تكون دائماً مشغولة، ومن يبحث عن مسكن مناسب لذوقه المتطلب، سيكون حاله سيئاً. لأن المساكن الفارغة والممكن استئجارها تكون غالباً فظيعة تثير الرعب. لا شك في أن البيت الصغير الجميل تسكنه امرأة وحيدة عزباء أو جدة؛ رائحته تدل على ذلك ومنظره يوحي بذلك. وإذا جاز لي الكلام، أود أن أضيف أن على جدار البيت الصغير هناك رسم جداري ملون أو لوحة حفر نافر بالجص ملونة تملأ الجدار كله، وهي دقيقة التفاصيل وطريفة، تمثل منظراً من جبال الألب السويسرية، وفي المنظر بيت أيضاً، لكنه بيت جبلي من منطقة بِرْن. وفي واقع الأمر لم يكن المنظر الملون جيد التنفيذ بأي حال من الأحوال، وسيكون من الجسارة زعم ذلك، إلا أنه بدا لي رائعاً. على الرغم من بساطته وسذاجته فتنني؛ ولنقل إن أي رسم فني يفتنني، مهما كان سخيفاً وغير متقن، وسبب ذلك هو أن كل لوحة رسم، تمثل أولاً جهداً مبذولاً واجتهاداً، وتذكر ثانياً بهولاندا. أليست أية قطعة موسيقية، حتى أفقرها، جميلة لمن يعشق جوهر الموسيقا ووجودها؟ أليس أي إنسان، لا على التعيين، حتى أكثرهم إيذاءً وإزعاجاً، يستحق المحبة في عيني مُحِبِّ البشر؟ إن منظراً مرسوماً بالألوان في وسط منظر حقيقي يعدُّ نزوة

طريفة، ولن يستطيع أحد أن يجادلني في ذلك. ثم إني لم أؤكد ولم أثبِّت واقعةَ أن جدةً عجوزاً تقطن في البيت الصغير، وليس في مقدوري استيعابها. إلا أني أستغرب فحسب، كيف أجرؤ هنا على استعمال مفردات مثل 'واقعة'، في حين أن كل شيء هنا طري ومفعم بالطبيعة البشرية، أو يُفترض به على الأقل، مثل مشاعر وتوقعات قلب أم. على أية حال، البيت الصغير كان مطلياً بلون رمادي ـ أزرق، ودرفات الشبابيك التي بدت كمن يضحك، كانت بلون ذهبي فاتح وأخضر، وفي الجنينة السحرية المحيطة به كانت تعبق أجمل الزهور. وفوق كوخ خشبي صغير في الجنينة مالت وتثنّت بطريقة ساحرة شجيرة ورد مليئة بأجمل الورود.

إن لم أكن مريضاً، بل معافىً ونشيطاً، وهذا ما آمله ولا أريد أن أشك فيه، مررت أثناء متابعة مشواري المريح بدكان حلاق ريفي، وليس لدي سبب حسبما يبدو لي للتعاطي مع ما فيه ومع صاحبه، لأني أعتقد بعدم وجود ضرورة ملحة لقص شعري، الأمر الذي قد يكون جيداً ومسلياً. ومررت بعد ذلك بورشة لصنع الأحذية، ذكّرتني بالأديب العبقري المنكود الحظ لِنتس، الذي في مرحلة اختلاله عقلياً واضطرابه نفسياً تعلّم صنع الأحذية وصنَع عدداً منها. أولم ألقِ نظرة أثناء عبوري على بناء مدرسة وغرفة صف لطيفة كانت المعلمة فيها تختبر التلاميذ

وتوجه أوامرها؟ وبهذه المناسبة لابد من الإشارة إلى الأمنية العميقة التي أحس بها الماشي في تلك اللحظات، لأن يعود طفلاً وتلميذاً مشاغباً وشقياً، فيعاود الذهاب إلى المدرسة ويحصد بكل جدارة كمية من الضربات ويتلقاها أيضاً، بسبب ما ارتكبه من مشاغبات وأفعال مسيئة. وبما أننا نتحدث عن الضرب، لابد من تضمين سياق الكلام رأينا بأن الفلاح يستحق ضرباً مبرحاً بلا شفقة، إذا لم يرتدع عن قطع زينة المنظر واستئصال جمال داره وسكناه، أي عن تحطيب شجرة الكستناء العتيقة السامقة، ليبيعها لقاء مال وضيع سفيه وسخيف. فقد وصلت في مشواري إلى دار فلاحية بالغة الجمال مع شجرة كستناء عظيمة، وعندها خطرت لي فكرة الجلْد وتجارة الحطب، فرفعت صوتي قائلاً: » هذه الشجرة السامقة بجلالِ ملكة تحمي الدار وترعاها بطريقة مدهشة، وتحتضنها بجديةٍ وفرح أمٍ مسبغة عليها أُلفة بيتية. هذه الشجرة تُعدّ بمنزلة ربٍ ومعبد، فإذا تجاسر مالكها عديم الإحساس والضميرعلى التفريط بسحر أوراقها الذهبية والخضراء البهية، كي يطفئ عطشه الدنيء إلى المال، وهو أحطّ هدف في الدنيا، فإنه يستحق ألف جلدة سوط. وأمثال هذا الأخرق المغفل يجب إقصاؤهم بعيداً. إن منتهكي الجَمال بقطع الأشجار يجب أن

ينفوا إلى سيبيريا أو إلى جهنم. ولكن، والشكر للرب، هناك فلاحون آخرون يملكون القلب والحس بالرقة والخير.»

من المحتمل أني قد تماديت كثيراً في ما يتعلق بالشجرة والبخل والفلاح والنفي إلى سيبيريا والجَلْد، الذي يستأهله الفلاح، على ما يبدو، لأنه قطع الشجرة، ويتوجب علي الاعتراف بأنني قد انجرفت إلى درجة الغضب. وأصدقاء الأشجار الجميلة سيتفهمون بهذا الشأن استيائي ويوافقون على أسفي الذي عبرت عنه بفيضٍ حيوية. لذلك سأتراجع بسرور عن الألف جلدة، أما تعبير 'الأخرق' فإني شخصياً أرفض التصفيق له. إني أشجب هذا التعبير الخشن وأرجو من القارئ أن يعذرني. وبما أنني قد اضطررت للاعتذار مراراً سابقاً، فقد اكتسبت نوعاً من الدربة في رجاء الاعتذار بتهذيب. لهذا أضيف، إن تعبير 'مالكها فاقد الإحساس والضمير'، أيضاً لم يكن ضرورياً. إنها سَورات الغضب تلك التي يجب تجنبها. هذا أمر جلي. لكني سأبقي على التألم من إسقاط شجرة قديمة سامقة جميلة، وأرسم بتعابير وجهي سَحنة امتعاضٍ، أرجو ألا يعيقني عنها أحد. أما قولي 'يجب إقصاؤهم بعيداً' فقد صدر عن لساني دون حذر، وفي ما يتعلق بالتعطش للمال الذي وصمته بالدناءة، فأزعم أني أنا أيضاً قد أثمت سابقاً في بعض الحالات بشناعة، فأخطأت وعصيت، ولم أبقَ غريباً عن بعض

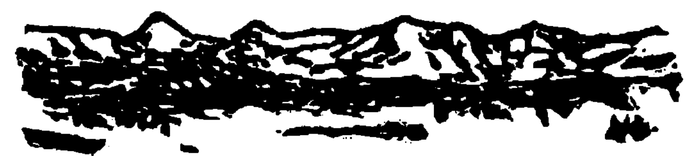
السفالات. إني بهذه الجمل الأخيرة أمارس سياسة رقة القلب، كما لم يسبق أن قُدِّمت بهذا الجمال، غير أني أعتبر هذه السياسة ضرورة. فاللباقة تملي علينا الانتباه إلى الحزم في تعاملنا مع أنفسنا بمثل تعاملنا مع الآخرين، وأن نحاكم الآخرين بنفس اللين واللطف اللذين نحاكم أنفسنا بهما، ونحن نحاكم أنفسنا لاإرادياً دائماً، كما هو معروف. أليس فاتناً ما أقوم به هنا من تصحيح أخطاء وتهذيب مخالفات؟ بما أني أقدّم اعترافات، أثبتُ أني مسالم، وبتحويلي الزوايا إلى منحنيات والقسوة إلى نعومة أظهِرُ مدى استعدادي للتصالح، وترحيبي باللهجة المعتدلة، فأنا إذاً ديبلوماسي. لقد فضحت نفسي على كل حال، غير أني آمل الاعتراف بالنية الحسنة.

إنْ تبقى الآن مَن يقول بأني إنسان لاأبالي، متسلط وصاحب سلطة، أندفع كالأعمى دون مراعاة لأحد أو لشيء، عندها أزعم، بمعنى إني آمل أن يحق لي أن أزعم بأن الشخص الذي يقول ذلك يخطئ خطأ جسيماً. فلم يسبق لكاتب أن فكر بالقارئ على نحو دائم بلطف ورفق مثلي.

إذن، بوسعي الآن البدء بتقديم وعرض القصور أو قصور النبلاء، وفي واقع الأمر كالتالي: إني أتباهى شكلياً، فبمثل مقر النبلاء والأريستقراطيين شبه المنهار هذا، بمثل مقر الفرسان والسادة الرمادي العتيق، الوقور الشامخ، هذا الذي برز أمامي

الآن محاطاً بحديقة شاسعة، يمكن للمرء أن يترك انطباعاً إيجابياً، أن يسترعي الانتباه، أن يولِّد الحسد، أن يثير الإعجاب وأن يحصد الشرف. إن بعض الأدباء الفقراء ولكنْ الجيدين بودهم من صميم قلوبهم وبأعلى درجات السرور أن يسكنوا في مثل هذا القصر أو القلعة ذات الباحة والمدخل لعربات الأريستقراطيين ذوات الشعارات. ويحلم بعض الرسامين الفقراء ولكنْ الذوّاقين للمتعة بإقامةٍ مؤقتة في قصر ريفي قديم وممتع. وبعض بنات المدينة المتعلمات ولكن المُعْدمات تفكرن بشجن وباندفاع مثالي ببركٍ ومغاور، بغرف عالية السقوف ومِحفّات، وبأنفسهن مُحاطات بخدم رشيقين وفرسان كرام. على جدار مقر السادة الذي كنت أتطلع إليه قرأت سنة تاريخ البناء ١٧٠٩، ما رفع درجة اهتمامي جداً. وبصفتي باحثاً في الطبيعة والأثريات نظرت بابتهاج جلي إلى الحديقة القديمة الفريدة الحالمة، حيث اكتشفت في بركة ساحرة ذات نافورة دفّاقة سمكة وحيدة بطول متر من نوع القُرموط، وتأكدت من الأمر. كما رأيت واكتشفت بمتعة رومانسية سرادقَ حديقةٍ من طراز مغربي أو عربي، جميلاً وغنياً بنجوم ملونة بالأزرق السماوي والفضي الغامض والذهبي والبني والأسود النقي. وخمّنتُ وحدست، اعتماداً على فهم دقيق في الوقت نفسه، أن السرادق يعود من حيث التصميم والتنفيذ إلى عام ١٨٥٨، وهو استنتاج وتقدير وتحزير، قد يجيز





لي ذات يوم إلقاء محاضرة أو قراءة بحث، في قاعة مجلس المدينة في الموضوع نفسه أمام جمهور يحب تشجيع الباحثين بالتصفيق لهم، وأنا مرفوع الرأس وعلى وجهي تعبير الواثق المتفائل. ومن المحتمل جداً أن تأتي الصحافة على ذكر المحاضرة، وهذا سيكون مدعاة لسروري طبعاً، فكثيراً ما تقع أمور مختلفة، دون أن يرد لها ذكر ولو بكلمة. وفيما كنت أدرس سرادق الحديقة العربي أو الفارسي خطرت في بالي الفكرة التالية: ' كم سيكون الوضع جميلاً هنا ليلاً، عندما تغشى كل شيء تقريباً عتمة كتيمة، كل شيء ساكن أسود وصامت، ومن قلب العتمة تسمق بهدوء أشجار التنوب، فيسود إحساس بمنتصف الليل يمسك بالماشي الوحيد، ثم يظهر مصباح ينشر ضوءاً أصفرجميلاً، تحمله إلى السرادق سيدة نبيلة جميلة ذات زينة فاتنة، يدفعها ذوقها الفريد وتحفّزها بادرة روحية غريبة للعزف على البيانو، الموجود بطبيعة الحال في الكوخ الخشبي، وترافق العزف، إن سمح الحلم بذلك، بغناء جميل بصوت صاف وساحر. كيف سينصت المرء في هذه الحال، كيف سيحلم، وكم سيكون سعيداً بالموسيقا الليلية'.

لكن الوقت لم يكن منتصف الليل، وبطول المنطقة وعرضها لاوجود لفرسان من العصر الوسيط ولا للقرن الخامس أو السابع عشر، بل نهار مشرق في يوم عمل، ومجموعة من الناس إضافة

إلى سيارة وقحة، منافية لأخلاق الفرسان، فظة ومتطاولة أكثر من أي سيارة عرفتها، قد أزعجوني أثناء مشاهداتي البحثية الرومانسية وانتزعوني بلمح البصر من شِعر البلاط وحلمية الماضي، ما جعلني لاإرادياً أرفع صوتي قائلاً: «صحيح أن من الفظاظة بمكان إعاقتي عن استكمال دراساتي الدقيقة والرمي بي في المهاوي المحترمة. كان يحتمل أن تنتابني سورة غضب، لكنني أفضل أن أكون متسامحاً وأن أتألم بصمت وأصبر. حلوٌ أن يفكر المرء بالجميل الساحر الذي عبَر ومضى، حلوةٌ تلك اللوحة العريقة الشاحبة للجمال المنهار الغارق. ولكن لاداعي بسبب ذلك لأن ندير ظهرنا للدنيا وللبشر، كما لايجوز للإنسان أن يعتقد بأنه محقٌ في حقده على الناس والمنشآت لأنها لم تراع مزاج ذاك المستغرق في التاريخ والفكر.»

أثناء متابعتي دربي فكرت بأن «حدوث عاصفة رعدية سيكون هنا جميلاً لا شك. آمل أن أعيش هذه التجربة في فرصة مناسبة قريبة.» شاهدت كلباً طيباً وأميناً وأسود كالليل مستلقياً في الدرب، فخاطبته مازحاً: » ألم يخطر في بالك أبداً أيها الشاب غير المتعلم وغير المهذب كلياً أن تنهض حقاً وتصافحني بيدك السوداء كالقطران، وعندما تروزني من قدميَّ إلى كامل هيئتي، هل ستتعرف فيَّ على إنسان أمضى سبع سنوات كاملة من حياته في أنحاء الدنيا والعاصمة، لم يضيِّع منها دقيقة، ناهيك عن

ساعة أو أسبوع أو شهر، إلا في رفقةٍ وصحبةٍ سارةٍ مع صفوة المثقفين حصرياً؟ ثم إلى أي مدرسة كنت تذهب أيها الفتى الفظ؟ ماذا؟ ولا تريد أن تَمنَّ عليَّ حتى بجواب مُبتسر؟ تريد البقاء مستلقياً، تتملاني بهدوء، دون أن تغيّر تعابير وجهك، راسخاً مثل تمثال؟ إخجل من نفسك!»

في واقع الأمر أعجني جداً هذا الكلب، بما كان يظهره من وفاء ويقظة، وبهدوئه واسترخائه الطريف. وبما أنه قد رمش لي بعينيه بمرح، كلّمته، ولكن بما أنه لم يفقه كلمة من كلامي، فقد أجزت لنفسي أن أشتمه، إلا أن لهجة المزاح الواضحة في كلامي، تبيّن أني لم أقصد سوءاً.

عندما وقع نظري على سيدٍ فائق الأناقة والشياكة، يمشي منتصب القامة بخطوات واسعة سريعة وبوقار مبالغ به، خطرت في بالي الفكرة الشجية التالية: «وأهملتَ أطفالاً صغاراً فقراء بثياب رثة؟ هل يُعقل هذا، أن رجلاً جميل الملابس، بكامل الزينة، وبكامل الحلي من خاتم وقلادة، أنيقاً ومُلمّعاً بهذه الصورة، لايفكر للحظة بالمخلوقات الصغيرة الفقيرة، التي غالباً ماتمشي بخرق ومزق، تدل على نقصٍ محزن في الرعاية والنظافة وعلى تشرد تعيس بائس؟ ألا يشعر هذا الراشد، المختال بجماله في الطريق، بالارتباك لمرأى الصغار المتسخين

المملوءة مزقهم بالبقع؟ أعتقد أنه لايجوز لراشد أن يبدي رغبة بالظهور مُهندَماً، مادام هناك أطفال تنقصهم أيّة ثياب خارجية.»

ولكن يحق للمرء بالدرجة نفسها من الصواب أن يقول، بأنه لايجوز لإنسان أن يستمتع بحفلة موسيقية أو بعرض مسرحي وما شابه ذلك من المسرات، مادام هناك في العالم سجون ومعتقلات تضم سجناء تعساء. بديهي أن في هذا شطط. وإذا كان على المرء أن ينتظر ويؤجل المتعة وجميع أنواع مسرات الحياة إلى أن يخلو العالم أخيراً من الفقراء والتعساء، فسيتوجب على هذا المرء الانتظار حتى النهاية الرمادية غير معروفة الأجل وحتى نهاية العالم الجليدية المكفهرة، وحتى ذلك الحين سيكون قد فقَدَ ذاتياً وبصورة تامة أي متعة حياتية.

شاهدت عاملة مشعثة، علَكها الشغل وعصرها وأنهكها، تقترب مترنحة من التعب البادي عليها، ومتعجلة رغم ذلك، إذ مازال عليها كما هو واضح قضاء بعض الحاجات بسرعة، فاستدعت إلى ذاكرتي بإلحاح في تلك اللحظة بنات العائلات الصغيرات المدللات والمعتنى بهن، أو البنات الأكبراللواتي لاتعرفن غالباً أو يبدو أنهن لاتعرفن بأية أشغال ناعمة وراقية أو تسليات ستقضين نهارهن، واللواتي تكن، ربما دون القيام بأي جهد مفيد، متعبات طوال أيام وأسابيع وهن تفكرن بما سترتدين كي تزداد صورهن بريقاً، فالوقت متسع أمامهن بلا نهاية لتقليب

وجهات النظر بالتفصيل حول ما يُفترض بهن إنجازه من إبداعات لاتُقاوَم لتغليف وتزيين قوامهن الحلو والهش.

لكني أنا نفسي كثيراً ما أكون مغرماً وعاشقاً لمثل هاته الزهرات الناعمات ذوات الجمال المعتنى به جداً ليسطع كنور القمر. وبوسع مراهقة فاتنة أن تأمرني بأي شيء يخطر في بالها وسأنفذ فوراً دون تفكير. آه ما أجمل الجمال وما أفتن الفتنة!

ها أنا ذا أعود ثانية إلى الكلام عن الهندسة المعمارية وفن العمارة، وهنا سيكون من الضروري إيلاء الاهتمام بقطعة أو مقطوعة صغيرة من الفن والأدب.

ملاحظة مسبّقة: تدل الرغبة في تنظيف المنازل القديمة الأصيلة الوقورة، والصروح التاريخية، والأبنية ذات التزيينات بزهور وورود، بغرض تجديدها، على ذوق سقيم. فمن يقوم بذلك أو يسمح به يأثم في حق الوقار والجمال، ويسيء إلى روعة ذكرى أسلافنا الشجعان والنبلاء في الوقت نفسه. والملاحظة الثانية: يُفضَّل عدم تتويج وتكليل عمارات الينابيع والنوافير مطلقاً بتزيينات تمثل وروداً أو زهوراً. الورود والزهور في حد ذاتها جميلة طبعاً، ولكن ليس بغرض تليين وتطرية صلابة وحزم جمال العمارة الحجرية أو لِمَحْوها. وبشكل عام يمكن لحب الورد أن يتشوه بتحوله إلى إدمان سخيف بتجسيده

نحتاً. وعلى الشخصيات ومجالس البلدية التي يعنيها الأمر أن تتحقق في أماكنها بدقة، مما إنْ كنتُ مصيباً، وتتصرف بعد ذلك بناء عليه.

سأذكر الآن بناءين جميلين ومثيرين للاهتمام، شدّاني إليهما بقوة ولفتا انتباهي بدرجة استثنائية، إذ فيما كنت أتابع طريقي وصلت إلى كنيسة صغيرة جميلة وغريبة، أطلقتُ عليها من فوري إسم كنيسة برينتانو، لأني قدَّرت أنها تعود إلى زمن الحركة الرومانسية المحاط بالفنتازيا ذات الهالة الذهبية، الزمن نصف المظلم ونصف المضيء، وخطرت على بالي روايته «غودڤي» العظيمة العاصفة والغامضة.النوافذ العالية الرشيقة ذات الأقواس أسبغت على البناء الفريد والبالغ العراقة منظراً ناعماً ولطيفاً ومنحته روحاً سحرية، سحر الحميمية والحياة الفكرية. وتذكرت مشاهد وصف الطبيعة العميقة فكرياً والصاخبة في الوقت نفسه للأديب نفسه، أقصد وصفه لغابات البلّوط الألمانية. وبعد مسافة غير طويلة وقفت أمام الڤيللا المسماة «شرفة» والتي ذكرتني بالرسام كارل شْتاوفر ـ بِرْن الذي أقام هنا مدة من الزمن، كما ذكرتني بقوة بعدد من الأبنية البالغة الرقي الموجودة في شارع تيرغارتن في برلين، والتي تولّد لدى الناظر إحساساً بالاستلطاف، نابعاً من المزج في أسلوب عمارتها بين السمو الحازم وبساطة الكلاسيكية. بالنسبة لي مثّل كل من بيت



شتاوفر وكنيسة برينتانو الصغيرة صرحين معماريين لعالمين منفصلين واحدهما عن الآخر تماماً، كل منهما بأسلوبه الخاص الفريد، أنيق مؤنس ومهم: هنا الأناقة المدروسة الباردة، وهناك الحلم الجيّاش الفطن، هنا شيء من الرفعة والجمال، وهناك شيء من الرفعة والجمال، أما كجوهر وتشكيل فمختلفان كلياً، على الرغم من تقاربهما زمنياً. والآن بدأ المساء يهبط على مشواري متمهلاً، ولا أظن أن الخاتمة الهادئة باتت بعيدة.

قد يكون من المناسب هنا ذكر بعض مظاهر حركة المرور والحياة اليومية، وليكن ذلك بالتسلسل: مصنع پيانوهات فخم إلى جانب مصانع ومؤسسات أخرى، شارع مشجر بالحور على الجانبين بجوار نهر مياهه مُسودّة، رجال، نساء، أطفال، حافلات ترام كهربائي ونعيق عجلاتها وسائقها أو قائدها المسؤول مستطلعاً الطريق، قطيع بقر جميل مبرقع بلون باهت، فلاحات، عربات زراعية وملحقاتها من دواليب وأصوات فرقعة سياط، كثير من الشاحنات المثقلة بحمولات عالية، شاحنات براميل بيرة، عائدون إلى بيوتهم، سيل عمال مندفع من معملٍ يشكل بصرياً وفكرياً المشهد المهيمن في موضوعنا هنا؛ عربات بضائع تتحرك خارجة من محطة قطارات الشحن، سيرك متنقل بكامل عتاده من فيلة وخيول وكلاب وحمير الوحش وزرافات وأسود مكفهرة في أقفاصها، مع سنغاليين وهنود، نمور، قرود

وتماسيح زاحفة، راقصات على الحبال ودبب قطبية مع كل الحاشية الضرورية، خدم، بهلوانات ومهرجون وعمال سيرك، ومن ثم: صبيان مع أسلحة خشبية يقلدون بها الحرب الأوروبية بإطلاق الشياطين من عقالها، صبيٌ عفريت يغني أنشودة 'مئة ألف ضفدع' وهو فخور بذلك أيّما فخر؛ ومن ثم: حطابون وعمال غابات مع عربات يدوية مملوءة بالحطب، ثلاثة خنازير فخمة توقظ خيال المشاهد ليتصور مذاق ولذة قطعة مدهنة مشوية من لحم الخنزير تعبق رائحتها المشهية في الجو وهذا أمر مفهوم؛ بيت مزرعة عُلِّقت على مدخلها حكمة، امرأتان من بوهيميا، منَ غاليثيا، من سلافيا الشرقية، من سلافيا الغربية أو امرأتان غجريتان وحسب بجزمة حمراء وعينين سوداوين كالقطران وكذلك الشَعر، يُذكِّرُ مرآهما ربما بروايات العريشة مثل 'أميرة الغجر'، التي تقع أحداثها في المجر، لكن هذا لن يغير من الأمر كثيراً، أو ربما برواية 'پرِثيوسا'، التي تعود أصولها إلى إسپانيا، لكن لا حاجة للتدقيق في الأمر كثيراً. وعلى صعيد الدكاكين هناك: قرطاسية، جزار، ساعاتي، حَذّاء، قبعات، خرداوات، أقمشة، بقالية، بهارات ومنكّهات، نوفوته، خباز، وحلويات. وفي كل مكان من هذه الأماكن حطت أشعة شمس المغيب اللطيفة، بالإضافة إلى كثير من الضجيج والأصوات، مدارس ومدرسين بوجوه ممتلئة وزْناً ووقاراً،

مناظر طبيعية وهواء نقي وكثير من الفن التشكيلي. ويجب ألاّ يفوتنا أو أن ننسى: الإعلانات واللافتات مثل «پرسيل» أو «حساء ماجي لايُعلى عليه» أو «نعل كونتيننتال يدوم طويلاً» أو «قطعة أرض للبيع» أو «أفضل شوكولاتة بالحليب» أو ماعدْتُ أدري حقاً، لكثرة ما هنالك. ولو أراد المرء أن يعدِّد ابتغاء الدقة، لما وصل إلى نهاية. واللبيب يحس بذلك ويلاحظه. ولكنْ ثمة ملصق أو إعلان أثار اهتمامي بامتياز؛ وهذا مضمونه:

ضيوف الوجبات

أو پنسيون رجالٍ راقٍ يعرض خدمات مطبخه الممتازة للسادة الأكابر أو الأقل درجة واحدة لا أكثر، ويمكننا القول بضمير مرتاح إن مطبخنا يرضي الألسن الذواقة ويطرب الشهية النشيطة. لكننا في غنى عن المعدات الفجعانة. وفن الطبخ الذي نقدمه يلائم ذوي التربية الراقية، ونعني بذلك أننا نفضل أن نرى على مائدتنا مَن كان حقاً من الأكابر. أما الأشخاص الذين يصرفون أجرة الأسبوع أو الشهر على السُكْر، فلا يقْدرون من ثمة على تسديد ثمن طعامهم فوراً، فلا نرغب الالتقاء بهم ولو من بعيد. فنحن نتوقع من السادة ضيوف وجباتنا المحترمين التقيد باللياقة والسلوك القويم. إذ إن موائدنا المثيرة للشهية، العامرة بأطايب المأكولات، والمزينة بأنواع الورود، تقوم على خدمتها بنات عائلات مهذبات فاتنات. ونحن نصرِّح بذلك كي يدرك السادة

المرشحون لموائدنا مدى ضرورة التمسك الفعلي بحسن التصرف، حالما تطأ أقدامهم پنسيوننا القيِّم والمحترم. أما الفاجرون والهمج والمنافيخ والمدَّعون فلا رغبة لدينا بالتعامل معهم على الإطلاق. وكل من يجد في نفسه سبباً للقول بأنه ينتمي إلى هذه الأصناف فليتعطف ويبتعد عن مؤسستنا الراقية وليعفينا من حضوره المزعج. في حين أننا من الناحية الأخرى نرحب فعلياً وعلى المستويات كافة بكل سيدٍ لطيف، ناعم، محترم، مؤدب، راقٍ، مهذب، ودود، مرح دون مبالغة، بل في إطار الهدوء، ولكن في المقام الأول بذاك السيد القادرعلى الدفع، المليء، الذي يدفع دون تأخير. وسوف يجد لدينا أفضل خدمة وألطف وأحلى معاملة؛ ونحن صادقون في وعدنا ونبغي المحافظة عليه دائماً وبكل سرور. والسيد اللطيف الودود من هذا القبيل سيجد على مائدتنا أطايب منتقاة لن يرى مثيلاً لها في أماكن أخرى مهما بذل من جهد؛ فمن مطبخنا الاستثنائي تخرج حقاً تُحف إبداعات فن الطبخ، وكل من يحاول تجريب خدمات مطبخنا للسادة ستتاح له الفرصة للتحقق من ذلك، ونحن نحضه ونشجعه في أي وقت شاء. إن الطعام الذي نقدمه على طاولاتنا يفوق، سواء من حيث الجودة أو الكمية، أي معيار معقول، وليس هناك من فنتازيا أو مخيلة بشرية مهما نشطت، قادرة على تصور اللذائذ التي يسيل لها اللعاب، والتي اعتدنا على تنزيلها



تباعاً للسادة الطاعمين المندهشين بحبور. لكن وكما أكّدنا هنا مراراً، نحن لا نتعامل إلا مع الأكابر، لهذا السبب ولتجنب حدوث أخطاء ولاستبعاد الشك، يرجى السماح لنا بالتعبير عن رأينا علناً. الرجل الأكابر من وجهة نظرنا هو فقط ذاك الوافر رقياً وبحبوحة مادية، لذلك هو على كل الأصعدة أفضل من الآخرين البسطاء. البسطاء الذين لا يملكون سوى البساطة، لا يناسبوننا إطلاقاً. الرجل الأكابري حسب اعتقادنا هو الذي يتوهم كثيراً من الأمور الخيالية والساذجة، والقادر بالدرجة الأولى على إيهام نفسه، بأن أنفه أفضل من أي أنفٍ جيد ومعقول لأي إنسان آخر لا على التعيين. وسلوك هذا الرجل الأكابر يعبِّر بوضوح عن هذه الفرضية الخاصة به، ونحن نعتمد على ذلك. إن مَن كان فقط طيباً ومستقيماً ونزيهاً دون أية ميزة مهمة أخرى، نرجو منه أن يبقى في منآى عنا، لأنه لايبدو لنا راقياً ولا أكابرياً. ونحن نمتلك حساً وفهماً دقيقاً لانتقاء الأرقى والأكثر رسوخاً في الأكابرية. إننا نلاحظ فوراً من المشية وجرْس الصوت وأسلوب تبادل الحديث، من وجهه ومن حركاته وطبعاً من ملابسه، قبعته، عصاه، من الوردة في عروة الزر، سواء وُجِدت أم لا، ما إذا كان هذا الرجل ينتمي إلى الأكابر أم لا. إن النظرة الثاقبة التي نمتلكها بهذا الخصوص تقارب السحر، ونحن نجرؤ على الزعم باننا قد أثبتنا على هذا الصعيد نوعاً من العبقرية. حسناً،

صار معلوماً الآن على أي نوع من الناس نعتمد، وفي حال جاءنا رجل ورأينا عن بعد أنه لا يناسب پنسيوننا، فإننا نقول له: «نحن نعتذر وكلنا أسف.»

قد يشك قارئان أو ثلاثة في احتمالية هذا الإعلان، بأن يقولوا لأنفسهم إن هذا لا يمكن أن يؤخذ على محمل الصدق تماماً.

ربما ظهر هنا وهناك بعض التكرار. لكنني أود أن أعترف بأني أعتبر الطبيعة وحياة الإنسان كهروب جميل ومثير أيضاً من التكرار، وبالإضافة إلى ذلك أود أن أعترف بأني أرى نعمةً في هذه الظاهرة تحديداً. بسبب الإفراط في الإثارة، هناك طبعاً في كثير من الأمكنة، لاقطو لذائذ مُستجِدّة فاسدون يشتهون الإثارة ويلْعَقونَها، أناس يشتهون في كل دقيقة تقريباً ما لم يسبق وجوده من ملذات. والأديب لايكتب مطلقاً لمثل هؤلاء الناس، مثلما أن الموسيقي لا يؤلف ألحانه لهم، والرسام لا يرسم لوحاته لهم. بصورة عامة يبدو لي، أن الحاجة المستمرة إلى الأطايب والأطعمة المستجدة كلياً تدل على سمة صَغارٍ، على نقصٍ في الحياة الداخلية، على اغتراب عن الطبيعة، وعلى فِطنة متوسطة أو قاصرة. وصِغارالأطفال فحسب هم مَن يُضطرالمرء باستمرار إلى عرض شيء جديد ومختلف عليهم، كي يحوز على رضاهم. والكاتب الجاد لايشعر بأنه مطالب بتوفير كميات

متراكمة من المادة التي يشتغل عليها، وبأن يكون خادماً رشيقاً لجشعٍ متوتر، وبناء على ذلك فإنه لايتهيب من بعض التكرارات الطبيعية، علماً بأنه يبذل جهده بداهة وباستمرار لتجنب تكاثر المتشابهات.

كان المساء قد حل الآن، وقد وصلتُ على درب جميل وهادئ أو درب فرعي تحت الشجر إلى البحيرة، حيث انتهى مشوار المشي. في غابة صغيرة من شجر جار الماء على حافة البحيرة اجتمع تلاميذ مدرسة مختلطة للذكور والإناث وكان السيد الكاهن أو المعلم، في جو الطبيعة المسائية، يلقي درسه في الطبيعيات التطبيقية. وأثناء متابعتي الطريق متمهلاً، خطرت في بالي صورتان مختلفتان لإنسانين. ربما نتيجة تعب شامل فكرتُ بفتاة جميلة، وبوضعي وحيداً في هذا العالم الواسع، وأن هذا لايجوز أن يكون صحيحاً. لامَسَتني من الخلف اتهامات لومٍ للذات واعترضت طريقي من الأمام، وكان عليّ أن أكافح بقوة. سيطرتْ عليّ ذكريات سيئة معينة وثقُل قلبي فجأة من لوم الذات. في أثناء ذلك بحثت في المنطقة المحيطة بي عن زهور، وجمعت بعضها من غابة صغيرة وبعضها من الحقل. بدأت تمطر بنعومة وهدوء، ما جعل الأرض الطرية أكثر طراوة وسكوناً. انتابني إحساس بأن الطبيعة تبكي، وخلال جمعي الزهور أنصتُّ إلى البكاء الهادئ الذي تتساقط دموعه على أوراق

النباتات. مطر صيفي دافئ وخفيف، آه ما أحلاك! «لماذا أجمع الزهور هنا؟»، سألت نفسي ونظرت إلى الأرض غارقاً في أفكاري، فضَخَّم المطر حالتي وصعَّدَها إلى درجة الحزن. خطرت في بالي خطايا قديمة مضت، خيانة، كره، عناد، احتيال، مكر، خبث، وكثير من الشجارات العنيفة والبشعة، عواطف منفلتة من عقالها، رغبات جامحة، وكم تسببتُ في إيلام بعض الناس وإيذاء آخرين. تكشَّفت حياتي السابقة أمامي مثل مسرح مليء بالمشاهد الدرامية المحتدمة، وكم اندهشتُ لاإرادياً من نقاط ضعفي الكثيرة ومن فظاظاتي وقلة أدبي تجاه آخرين. وهنا تراءت أمام عينيّ صورة الإنسان الثاني، ورأيت فجأة الرجل الذي شاهدته قبل بضعة أيام في غابة مستلقياً على الأرض عجوزاً متعباً فقيراً ومهجوراً، بدا مثيراً للشفقة، بائساً، شاحباً، تعيساً وهزيلاً حتى الموت، لدرجة أن مرآه المحزن الذي يقبض الروح قد أرعبني. نظرت الآن إلى صورة ذاك الرجل المنتهي وشعرت بوهن. أحسست بالحاجة إلى أن أستلقي في أي مكان، ولمّا وجدت في تلك اللحظة مكاناً صغيراً ودوداً وأليفاً على ضفة البحيرة، وكنت مرهقاً، لجأتُ إليه على الأرض تحت حماية أغصان حنونة. وفيما كنت أنظر إلى الأرض والهواء والسماء، تملكتني الفكرة الحتمية المُكْئبة، بأني سجين مسكين بين السماء والأرض، وأن الناس جميعهم على هذا النحو أسرى



يثيرون الشفقة، وألاّ منفذ أمامهم سوى إلى الحفرة المعتمة تحتهم في الأرض، وألاّ طريق هناك إلى العالم الآخر، إلا عبر القبر. «أيجب إذاً على كل شيء، كل شيء، كل هذه الحياة الغنية، الألوان الودودة المشحونة بالأفكار، البهجة، فرح الحياة ومتعتها، كل هذه المعاني الإنسانية، العائلة، الصديق، الحبيبة، هذا الهواء اللطيف المشرق الممتلئ بصور إلهية جميلة، بيوت الآباء والأمهات والشوارع الحبيبة اللطيفة، كل هذا سيتلاشى ذات يوم ويموت، الشمس العالية، القمر، قلوب وعيون البشر.» أمعنت التفكير في الأمر طويلاً ثم وبصمتٍ رجوتُ الصفح ممن قد آلمتهم. بقيت طويلاً غارقاً في أفكار غير واضحة، إلى إن تراءت لي مجدداً صورة الفتاة التي كانت على درجة كبيرة من الجمال واليفاعة والحلاوة والطيبة وصفاء العينين. وتخيلت بحيوية مدى روعة فمها الطفلي الجميل، وجمال خديها، وكيف يسحرني شكل جسمها بنعومته كلحن موسيقي، وكيف سألتها شيئاً قبل حين، فأغمضت عينيها الجميلتين في شك وارتياب، ثم كيف قالت «لا»، عندما سألتها إنْ كانت تصدِّق حبي الخالص ومودتي لها وتفانيّ فيها وشوقي إليها. الظروف المحيطة أجبرتها على السفر، فرَحَلت. ربما كان باستطاعتي أن أقنعها قبل فوات الأوان بأني جاد وحسن النية تجاهها، وبأن شخصيتها المحبوبة مهمة بالنسبة إليّ، وبأني

لأسباب جميلة عديدة راغب في إسعادها، وبالتالي إسعاد نفسي. إلا أني لم أبذل مزيداً من الجهد، وسافرَتْ. لماذا الزهور إذاً؟ «هل جمعتُ الزهور لأضعها على محنتي؟» سألت نفسي، وسقطت الباقة من يدي. كنت قد نهضت لأذهب إلى بيتي؛ فقد تأخر الوقت وبات كل شيء معتماً.

انتهت

المؤلف

روبِرْت ڤالْزَر Robert Walser أديب سويسري ـ ألماني، ولد في ١٥/٤/١٨٧٨ في مدينة بيل Biel ثاني أكبر مدينة مزدوجة اللغة (ألماني/فرنسي) لأسرة كثيرة الأولاد، ومات في ١٢.٢٥. ١٩٥٦ في مِصَح هِريساو Herisau في أثناء مشوار مشي في الثلج. بعد المرحلة المدرسية تلقى ڤالزر تدريباً مصرفياً وعمل مساعداً في عدة بنوك وشركات تأمين في زوريخ. نشر قصائده الأولى ١٨٩٨ ففتحت له الطريق إلى الأجواء الأدبية. وبعد أن نشر كتابه الأول «مقالات فريتس كوخَر» ١٩٠٥ لحق أخاه كارل إلى برلين، الذي نجح هناك كفنان تشكيلي ومصمم مناظر مسرحية. وفي تتابع سريع نشر روبرت ثلاث روايات: «الأخوات تانّر» ١٩٠٧، «المساعد» ١٩٠٨، «ياكوب فون غونتن» ١٩٠٩. كما ركز على كتابة الخواطر والقطع النثرية القصيرة ذات الموضوعات المختلفة، وبرع في ذلك بصورة لافتة أثارت اهتمام كتاب كبار في ذلك الحين مثل موزيل

وتوخولسكي وبنيامين وكافكا وهِسَه، وتنقل خلال هذه المرحلة بين أعمال متنوعة ليعيل نفسه.

في عام ١٩١٣ اضطر الكاتب للعودة إلى سويسرا، فأقام لدى أخته الكبرى ليزا في مقر عملها معلمةً في مؤسسة لرعاية المرضى نفسياً في محافظة برن، ثم انتقل إلى بيت أبيه في بيل، ثم قرر استئجار عِليّةٍ رخيصة وبائسة في فندق الصليب الأزرق وبدأ بمشاوير المشي الطويلة. وخلال الحرب العالمية الأولى استُدْعي للإحتياط، وانقطع تواصله مع ألمانيا ووسطها الأدبي والصحفي، كما تتالت وفيات أبيه وأخويه فشعر بعزلة كبيرة، فانتقل١٩٢١ للعمل في الأرشيف العام للدولة في برن. خلال السنوات التالية طوَّر ڤالزر أسلوبه لغوياً وموضوعاتياً، فلجأ إلى التكثيف والتورية في تناوله كتّاباً وفنانين وإلى توليفٍ مدهش بين ثيمات من 'الأدب الرفيع' وأخرى من 'الأدب الوضيع.' على الرغم من قلة فرص النشر كان الكاتب غزير الإنتاج جداً.

في عام ١٩٢٩ وبعد عدة أزمات نفسية، أصيب ڤالزر بانهيار عصبي، فأدخل بناء على إلحاح أخته ليزا إلى المصح النفسي في ڤالداو قرب برن، فتحسن وضعه بعد عدة أسابيع وعاود الإنتاج مستخدماً أسلوب المنمنمات الدقيقة بقلم الرصاص، لم يُبيِّض منها بالحبر للنشر بخط طبيعي سوى القليل. وفي عام ١٩٣٣ تم نقله رغماً عنه إلى مصح هِريساو قرب بيل، فتوقف

عن الكتابة نهائياً، ويُرجح أن استلام النازيين السلطة في ألمانيا كان السبب الرئيسي. بقي ڤالزر نزيل هذا المصح حتى وفاته منسياً من العالم، عدا الكاتب كارل سيليغ، الذي صار لاحقاً وصيَّه.

في نهاية سبعينات القرن الماضي بدأت عملية إعادة اكتشاف روبرت ڤالزر بإعادة طباعة ما سبق أن نُشر من أعماله، وتوِّج ذلك بإصدار أعماله كاملة في عشرين مجلداً بتحقيق علمي شمل فك شيفرة المنمنمات الرصاصية، كما صدرت دراسات نقدية كثيرة تناولت أعماله بالتحليل وتأثيرها في سياق تطور الأدب الناطق بالألمانية، فاعتُبر الحلقة المفقودة بين هاينريش فون كلايست وفرانتس كافكا، وأحد آباء الحداثة الألمانية، ولا يخفى تأثيره طبعاً على كتاب مثل مارتين ڤالزر وپيتر پيكسل وپيتر هاندكه وإلفريدة يلينك وڤينفريد غيورغ سيبالد.

Vierzehn Birnholzschnitte

von

Christian Thanhäuser



zu

Robert Walser

Der Spaziergang

2014

هذا الكتاب

أحيطكم علماً بأنني ذات يوم جميل، قبل الظهر، لم أعد أدري في أي وقت بالدقة، حضرتني رغبة في أن أتمشى، فلبست قبعتي، وغادرت غرفة الكتابة أو غرفة الأرواح، ونزلت على الدرج لأخرج بسرعة إلى الطريق. بإمكاني أن أضيف أني التقيت على الدرج بامرأة تبدو وكأنها إسپانية أو پيروانية أو كريولية، تظهر عليها مسحة جلال شاحب ذابل. ولكن يجب أن أمنع نفسي بشدة عن التوقف ولو لحظات عند هذه البرازيلية أو مهما كانت ترغب في أن تكون، إذ لا يجوز لي هدر المكان ولا الزمان. وبقدرِ ما زلتُ قادراً على تذكره اليوم وأنا أدوّن هذا كله، كنت عند خروجي إلى الطريق.


ISBN 978-9933354312

